www.kotobarabia.com

موسيقى الهول

محمود الوردانى

I can here music everywhere , it takes my soul beyond & i brings me back again. I can here music everywhere , it takes my soul beyond & i brings me back again. I can here music everywhere , it takes my soul beyond & i brings me back again.I can here music everywhere , it takes my soul beyond & i brings me back again. I can here music everywhere ,

www.kotobarabia.com

محمود الورداني

موسيقى المول

رواية

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الو رقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

صدر للكاتب

- "السير في الحديثة ليلاً" مجموعة قصصية – دار شهدي ١٩٨٤
- دار ميريت طـ٢-٢٠٠٤.
- "النجوم العالية" – مجموعة قصصية – مختارات فصول – هيئة الكتاب – ١٩٨٥ – مكتبة الأسرة – طـ ٢ – ٢٠٠٣.
- "مدينة السور" رواية للأطفال – دار ثقافة الأطفال – بغداد- ١٩٩٠.
- "نوبة رجوع" – رواية – هيئة الكتاب – ١٩٩٠.
- "رائحة البرتقال" – رواية – دار شرقيات – ١٩٩٢- مكتبة الأسرة – طـ٢-١٩٩٩.
- "في الظل و الشمس" – مجموعة قصصية – مختارات فصول – هيئة الكتاب ١٩٩٥ – مكتبة الأسرة – طـ٢-٢٠٠٢.
- "طعم الحريق" – رواية- روايات الهلال – ١٩٩٥- طـ٢- مكتبة الأسرة-٢٠٠٠.
- "الروض العاطر" – رواية – روايات الهلال – ١٩٩٨.

- "ثمن الحرية" – على هامش المعارك الفكرية والاجتماعية في التاريخ المصري الحديث – مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان – ٢٠٠٢.
- "مائة عام من الحكي" – مختارات و دراسة – منشورات أمانة عمان الكبري – الأردن.
- "أوان القطاف" – رواية – روايات الهلال – ٢٠٠٣.

حين تسلمت قرار النقل، ممهورًا بالأختام الرسمية و التوقيعات ، تلكأت قليلاً محاولاً التأجيل، فهذا هو أبعد مكان نُقلت إليه، لكنني تلقيت تحذيرات خفية بأن تباطئي وحده سيصيبهم بالغضب ، وربما يحولونني إلى جهات أعلى، وعندئذ سيكون عقابي بلا شك عبرة لمن يعتبر.

وهكذا ركبت القطار ودخلت المدينة في وضح النهار . كانت تمطر عندما غادرت بيتي قبل الفجر رذاذًا في البداية، وما لبثت السماء أن تفجرت ببروق متتابعة، قبل أن يهطل المطر بغزارة و على نحو متواصل.

نزلت من قطاري، وللوهلة الأولي، و أنا أحدق في لافتة المحطة، خُيِّل لي أنني أعرف هذه المدينة. جعلت أسير الهويني محتميًا، بالسقف الخارجي الخشبي للمحطة، وأنا أستعرض في خيالي محطات المدن المختلفة التي سبق لي أن غادرتها ، وهبطت في محطاتها تنفيذًا لأوامر نقل سابقة، غير أن هذه المدينة بدت لي معروفة على نحو ما.

تذكرت تلك المرات السابقة، و اللحظات الأول التي تعقب وصولي و تمنحني هذه الدهشة المزوجة بالرهبة و أنا أتعرف عل أول شارع يواجه المحطة، مفتوحًا عل المدينة، فتنبسط بيوتها و ميادينها و الشوارع المتفرعة منها أمامي،

أو مختنقًا ضائقًا بناسه و حيواناته وعرباته، أو هادئًا خاليا تحيط به الصحراء.

عل أية حال، بات سفري و ركوبي القطار أمرًا بالغ السهولة، فمنذ انفصلت عن "عزة"، تقلبت عل عدة مدن، حت أنني نسيت الآن في أية مدينة تقيم عزة الآن.

في أقص السماء، بدت الشمس الخفيفة، لكن الرذاذ لم ينقطع مع ذلك، فغامرتُ وقطعت الشارع ركضًا، و أنا أشعر بالبلل على وجهي. بدا لي أن ما أمامي هو "مول" من ذلك النوع الذي صادفته مرات سابقة في مدن مختلفة، ولم أجد في نفسي الشجاعة لاقتحام مثيله و التعرف عليه، فخطر لي في هذه اللحظة فحسب أن أجرِّب تناول كوب من الشاي في إحدى قاعاته، قبل توجهي إلى المدينة و البحث عن فندق لأقضي فيه ليلتي، فما زال ثمة وقت لأن أفعل شيئًا مختلفًا على الأقل، عما تعودت أن أفعله في كل مدينة.

* * *

كان الواقفان خلف المعبر الأمني يرتديان "يونيفورم" خاصًا. ابتسما لي، ومد أحدهما- و هو الأسمر- يده وأخذ مني الحقيبة. كانت حقيبة جلدية صغيرة تعودت على اصطحابها في الآونة الأخيرة ، فهي تبدو صغيرة للغاية، لكنها تستوعب كل ما أحتاجه:

الغيـــار الـــداخلي وآخـــر خارجيًـــا و "الشبشـــب" و"البيجامـة"ومعجـون الأسـنان و الفرشـاة وعـددًا مـن الروايات التي سبق لي قراءتها، ومن بينها نسخة قديمة من ألف ليلة، و أخيرًا أدوات الحلاقة. فتَّش الأسمر كل هذا جيدًا بل وجاس بأصابعه بين ملابسي.لم أستطع أن أكتم تقززي وهو يفعل ما يفعله، ورحت أبرطم مختنقًا دون أن أستطيع أن أكوّن جملة واحدة، بالغ في ابتسامته و هو ينهي إغلاق الحقيبة و يعيدها لي، فاختطفتها واقتحمت "المول".

كان الضوء ساطعًا في الداخل، وكان المول كما تخيلته تقريبًا ... مبنى سحريًا مثيرًا ينطوي على مفاجآت كثيرًا ما حسدت الأخرين، الذين كنت أشاهدهم وهم ينعطفون فجأة أثناء سيرهم، و يدلفون إلى المول راسمين على وجوههم ملامح تنم على التصميم: فهم يقبضون على شفاههم و ينظرون في اتجاه واحد ثم يقتحمون الأماكن. كثيرًا ما حسدتهم على جسارتهم وقوة احتمالهم، و لم أجرِّب أن أفعل ما يفعلون من قبل.

لم أجد سوى ممرات و دهاليز متقاطعة منيرة بإضاءة قوية، و على الجانبين محال صغيرة متجاورة للملابس و الإكسسوارات و الساعات و الأحذية و الأدوية و المقويات و البقالة و أدوات التجميل و ألعاب الأطفال و المجوهرات و الموبيليات... لم أتمالك نفسي و أنا أشاهد كل هذا و صحت مندهشًا، ثم كتمت صيحتي، فقد أدركت لماذا يرسم

الناس على وجوههم ملامح التصميم و الإصرار قبل اقتحامهم المول.. كان كل شيء تفكر فيه أو تحلم به أو تبحث عنه لابد أن تجده في المول... المهم أن يكون لديك الجَلَد و الإصرار و القدرة على التحمل. و مضيت أنحدر مع الممرات، وعندما أصادف مصعدًا أمامي لا أتردد في ركوبه، و لما يتوقف أبادر بالنزول لأقتحم أول دهليز يواجهني. أما السلالم الكهربائية الصاعدة والهابطة فلم أفلتها ورحت أتمتع بمشاهدة المحلات والحواجز الزجاجية و الأبنية و هي تلوح من أعلى و من أسفل و المفاجآت تتوإلى.

* * *

قادتني الموسيقى الراقصة التي كانت خافتة أول الأمر نحو باب عريض في أعلى جانبيه وقف تمثالان لقطين. نعم.قطان.. الأول أسود و الثاني أبيض و كلاهما يشبّ على قوائمه الخلفية كانت ملامحهما مرسومة بنيون كهربائي ملون، و بدا أحدهما يكشر عن أنيابه بينما يضحك الثاني و ترتعش شواربه، و عندما انطفأت الأضواء للحظة، ثم أُضيئت مرة أخرى وجدت أن دور كل منهما قد تغير، فمن كان غاضبًا أصبح هو الذي يضحك، و من كان سعيدًا و ضاحكًا أصبح هو الغاضب... و هكذا رحت أتابع القطين اللذين تتحول ملامحهما على التوالى: من الغضب و الصلف إلى الضحك و القهقهة.

كان ثمة رجلان آخران من الأمن على الباب يرتديان اليونيفورم نفسه، و الذي سبق لي أن شاهدته. فتشا الحقيبة بأدب هذه المرة.

في الداخل، كان الجو دافئًا، وجمع من الرجال و النساء حول المناضد بينما يرقص البعض في المدخل المواجه. كانوا في ذروة نشاطهم يشربون و يأكلون و يتبادلون القبلات و يتهارشون لاحظت أن أغلبهم من الأولاد صغار السن و لا يوجد من يردعهم عن هذا ارقص المهتاج العنيف لما تصاعدت الموسيقى في صخب و جلبة لم أملك إزاءها إلا الاستسلام لأول مقعد صادفني، و جعلت أتلفت باحثًا عن الجرسون و أنا أشعر بحلقي جافًا. لكنه فاجأني من حيث لا أدري ووضع أمامي زجاجة نبيذ روزيه و طبقا من المزّة ثم اختفي على الفور. بحثت عنه بعيني فأنا لم أطلب شيئًا بعد، ثم إن على أن أخرج لأبحث عن فندق يئويني هذه الليلة قبل أن أتوجه في الصباح لمقر الإدارة المنقول لها و تسلم عملي الجديد. وحلّ على وجوم ثقيل ما لبث أن تحول إلى خوف غامض.

* * *

هلت واثقة و سحبت المقعد المواجه لي، وما لبثت أن مالت نحوي وهي تجلس وقد أشرق وجهها بابتسامة عذبة. للوهلة الأولى خُيّل لي أنها "عزة"، و تهيأت لاحتضانها فقد كان مجرد وجودها مفاجأة مبهجة على أية حال. أما هي، فقد بدا أنها تعرفني ولاشك، لأنها مدّت ذراعها و

ضغطت على كتفي بتلك الألفة التي لا يمنحها الإنسان إلا لمن عرفهم طويلاً. استسلمت لعينيها فقد كانتا تحملان شوقًا افتقدته منذ زمن لم أعد أتذكره.

همست لي و هي ترفع خصلات شعرها بأصابعها عن عينيها و تتلفت برقبتها:

"هل تعلم أنهم هنا أيضًا...؟...".

لم أفهم مقصدها، وهززت لها رأسي، فتابعت:

"عندما يطفئون النور اتبعني...".

عاجلنا الجرسون بزجاجة أخرى و انحني مبتسمًا، وكاشفًا عن أسنانه البيضاء، وهو يضع الكأسين وأطباق المزّة على المنضدة التي نجلس حولها. كانت هي تميل على بين الحين و الآخر، وكنت على وشك سؤالها لأتأكد: هل هي عزة فعلاً؟.. قلت لنفسي إن مجرد توجيه هذا السؤال لها ، وهي في هذه الحالة من الحنان العذب يعني أنني لا أستحق ذرة واحدة منه. وكان فستانها المصنوع من القطيفة بلون النبيذ الداكن محلى بوردات دقيقة محيطة بالصدر تبدو وكأنها وردات حقيقية... كانت تكلمني عن أولئك الموجودين هنا أيضًا و طلبت مني أن آخذ حذري و أنتبه جيدًا، و كررت على أن المهم هو أن ألتزم بما تشير به في اللحظة المناسبة. عندئذ أدركت أنها عزة بالفعل، فقد كانت تلك بعض أقوالها المأثورة خلال السنوات الثلاث فأمسكت بكفيها ورحت أشد عليهما بين كفيّ، و شعرت بتلك

الاستجابة لي تسري في عروقي، مثلما كان يحدث عندما كنا معًا.

لم أكن قد انتهيت من كأسي عندما فوجئت بالجرسون يصب لي كأسًا أخرى من الزجاجة. قلت لنفسي إن على ألا أتجاوز هذا الكأس ، و لتكن كأسي الأخيرة، وقررت أن استأذنها على الفور وأعود إليها غدًا أواصل التحديق في عينيها.... كنا قد افترقنا منذ سنوات عديدة... وقلت لها إنه لا حاجة لنا للعتاب، فأجابتني إنها لا تستطيع أن تنسى أنني تركتها دون أن أبذل أي مجهود في احتمال مخاوفها و ضعفها. أخرجت قرار النقل من حقيبتي، لكنها هزت رأسها وقالت إنها تعلم أنه قرار النقل، و أضافت إنها ستتمكن من تهريبي من الحصار الذي قرروا فرضه عليّ. ثم فاجأتني عندما أضافت إنه لا يقلقها إلا أنها تركت ابنتنا "هند" وحدها في البيت نائمة. وخفق قلبي عندما لفظت اسم هند التي كانت قد ماتت منذ سنوات، ووارياها التراب معًا- أنا و عزة- بعد أقل من شهرين من ولادتها. هل أصدمها و أقول لها إن هند ماتت؟ و هل من المعقول أنها لا تتذكر أمراً كهذا.

سكتنا معًا، ومضيت أتشاغل عنها محاولاً ألا تلتقي عينانا، و فاجأتني مثلما كانت تفاجئني في الماضي وقالت إنني حتى لم أهتم بسؤالها عما جرى منذ فراقنا. وهنا حانت

اللحظة التي كنت أنتظرها و نطقت باسمها ثم توقفت لأرى رد فعلها.

* * *

عندما أطفأوا الأنوار، تراجع الراقصون ليحتلوا مقاعدهم بضجيج خفيف، وبانت رائحة كأنها رائحة عرقهم و هم يحيطون بنا. كان جسم عزة على المقعد المجاور لي. شعرت بامتنان شديد لأنها قريبة مني إلى هذا الحد. مددت كفي وقبضت على كفها و عدت للتحديق في عينيها ولما أحسست بألمها خففت قبضتي.

حل الظلام الدامس إلا من جمرات السجائر المتناثرة هنا وهناك، ثم ارتفع صوت الطبول و سُلط ضوء وحيد ساطع على شكل دائرة تحتضن امرأة ترتدي بدلة سوداء و قد تمنطقت بغدارة، وفي يدها اليمنى سوط تفرقع به على حذائها العسكري الذي يصل إلى ما تحت ركبتيها. راحت تتجول و دائرة الضوء تتابعها أينما اتجهت، وهي تفرقع بسوطها، و شعرها الأسود الداكن يتدفق على كتفيها. كان مكياجها ثقيلاً و ألوانه داكنة ذات حضور فبدت كأنها ترتدي قناعًا، بينما انطلقت أصوات آلات موسيقية أخرى تشارك الطبول، غير أن الأخيرة بالذات احتفظت بسيطرتها على الإيقاع.

عدت أتذكر أن على أن أغادر هذا المول الذي تورطت فيه، و أن أركض نحو مقر عملي الجديد، فتلك هي المرة الأولى التي أتقاعس فيها عن تنفيذ أحد قرارات الإدارة. شدّ انتباهي صرخات رجل، فتحولت بسرعة لأجد دائرة ضوء أخرى مسلطة على رجل ظهر على المسرح الآن. كان يرتدي سروالاً أسود طويلاً بالغ الضيق و فانلة بحمالات سوداء أيضًا

وقد بدا راكعًا تقريبًا على المسرح، و المرأة تلف حوله و تعاجله بضربات سوطها من كل اتجاه، ثم فاجأتنا نحن النظار و خلعت سترتها وقذفت بها نحونا. عادت لضرب الرجل على ظهره بسوطها و الرجل يئن بصوت مكتوم، و خلعت بلوزتها فبدا جسمها مثل نار بيضاء اشتعلت فجأة و ثدياها يهتزان هزة خفيفة لكنها قاسية. اتجهت نحو الرجل المضرج في دمائه، وراحت تفرقع بسوطها حوله، غير أنه كان مجنونًا بالرعب منها يحاول تفادي الضربات و هو ثابت في مكانه.

و عندما خلعت حذاءها نظرت إلينا مباشرة ثم قذفت به أيضًا نحونا، بينما الرجل يتابع شهقاته و أناته التي كان ممكنًا سماعها بالكاد وسط أصوات الموسيقى حتى أطفئت كل الأنوار تقريبًا.

على الرغم من الرعب الذي شعرت به، إلا أنني عندما التفتُ إلى الخلف بفعل هاجس خفي، خُيّل لي أنني لمحتها، و تذكرت أنها قالت لي أن أتبعها حين يطفئوا الأنوار. هل

أتبعها؟ وهل هي التي لمحتها منذ ثوان قليلة؟... وحتى إذا كانت هي، كيف أركن إلى من قالت لي منذ قليل إن ابنتنا التي وارياها التراب معًا ما زالت حية في مدينة أخرى؟..

لاشك أنني في مأزق حقيقي، و ما كان لي أن أؤخر توجهي لاستلام عملي و تنفيذ قرار النقل . لقد نفَّذت بدقة ودأب، لي مدى سنوات و سنوات، كل القرارات و الأوامر الصادرة بشأني، فكيف سمحت لنفسي إذن بكل هذا العبث و العصيان؟

* * *

تقدمت في نهاية الأمر ، عاقدًا العزم على مغادرة القاعة بل و المول بكامله ، و تحمل المسئولية و الانصياع و الامتثال كما تعودت دائمًا على الرغم من الثمل الذي بدأ يغزوني على مهل أول الأمر، غير أنني أعرف أنه في لحظة معينة سيثقل عليّ، فأتخلى عن حذري و حيطتي، وهو أهم ما أنا مطالب بالاستعصام بهما فيما أن مقبل عليه.

غادرت المكان على الفور مستغلاً العتمة و فرقعة السوط الذي كان في يد المرأة العارية، إلا من كيلوت بكيني أحمر اللون، بدا كاشفًا عن وركيها العضليين في العتمة الخفيفة. دلفت من باب جانبي لقيته مواربًا إلى جواري، لألقي نفسي في ممر آخر أكثر إظلامًا. تحسست المكان بأقدامي و

مضيت كأنني أزحف، منصتًا لصوت طلقات رصاص بعيد، ثم راح يقترب إلى أن بدا أنه ينطلق من هنا بالضبط، فتوقفت خائفًا وقلت لنفسي كفاني المعارك السابقة التي اضطررت لخوضها دون جدوي، و كان آخرها في حفر الباطن التي دفعونا إليها و أعادونا منها دون أن يفهم أحد منا لماذا ذهبنا و لماذا عدنا.

تحسست بيدي حتى وجدت بابًا آخر. ضغطت على المقبض و أدهشني أنه استجاب و انفتح بسهولة. هالني ما رأيت ، بل وكدت أنفجر بالضحك. كان ثمة أربعة رماة ظهورهم نحوي يصوِّبون باتجاه لوحات العلامات على الحائط الذي يبعد عدة أمتار، وقد ارتدوا الغطاء الواقي لحماية آذانهم، بينما أجسادهم ترتج ارتجاجة خفيفة مع كل طلقة. راحت الطلقات تتوالى، و بضع رجال و نساء يتمهلون متناثرين في الممرات، وبالقرب من الجدران المبطنة بما بدا أنه عوارض خشبية منطفئة اللون.

استدرت عائدًا وعازمًا على الإفلات بأية طريقة من هذه الفخاخ المنصوبة لي ، لم يحدث من قبل أن تأخرت عن موعد حضور أو انصراف، ولم يحدث من قبل أيضًا أن تخلفت عن التزام وظيفي على مدى سنوات عملي.

ضبطت نفسي باحثًا مرة أخرى عن عزة، أتلفتُ بعين علّني ألمحها، فقد سبق لها أن وعدتني بمساعدتي على الهرب من الحصار. مضيت أجرّ قدمي في الممر باحثًا عن منفذ، و انتبهت إلى سبب الضيق الذي أشعر به يجثم على صدري منذ فترة. إنه ذلك الهواء المكتوم وقد جري استخدامه من قبل ثم أعيد إنتاجه هو نفسه دون تغيير. ومع هذا تلبسني تصميم بأنني قادر على فرض إرادتي و التخلص من المول بكامله و الخروج إلى الخلاء. رحت أغذ السير محاولاً استراق النظر عبر الأبواب نصف المغلقة أو الموارية قليلاً.

تلك هي عزة أخيرًا... هتفت باسمها عندما لمحتها، و هرعت أركض نحوها. لحقت بها طائرًا حتى الباب المفضي للسلالم المعدنية. جعلت أركض و أركض ممسكًا بكفها عبر ممرات و أبواب و أشباح تلوح أمامنا ثم تختفي. خرجنا في النهاية من باب مختلف عن الباب الذي سبق لي أن دخلت منه. في لحظة كانت قد استوقفت سيارة أجرة مضت تقطع الشوارع، وأنا أتطلع عبر النافذة لأتعرف على محطة القطار دون جدوى، حتى توقفت أمام بناية بدت أعلى قليلاً من البنايات الأخرى المحيطة بها.

قادتني واثقة في خطوها. دلفنا إلى اليمين بعد أن قطعنا السلالم دون أن نتبادل الكلام. سرنا في ممر انتهى بنا إلى دهليز. توقفت عندما توقفت هي تبحث عن المفتاح في

حقيبة يدها. لما دخلنا، أغلقت الباب بالمفتاح خلفنا و شدّت الترباس أيضًا. كانت الشقة دافئة، و استيقظت رغبتي فيها وأنا أراها تروح و تجيء هنا و هناك فأستعيد تفاصيل جسمها الغائب عني. نعومة نظرتها و شعرها الثقيل بلون العسل و خصرها الذي عشقت انحداره قبل أن يعود ليسع محتضنًا وركيها.. هل هذا هو الثمل وقد هبط أخيرًا بعد أن انتظرته طويلاً منذ كنا في الملهى؟ بذلت كل ما في وسعي لأفتح عيني... رحت أقاوم وأهز رأسي محاولاً النهوض...

لماذا لا تتحدثين معي يا عزة؟...

هل هناك أحد سوانا هنا؟...

و أين هند التي قلت لي أنك تركتها وحدها؟...

* * *

عندما استيقظت وجدتها إلى جانبي راقدة على الأريكة المجاورة فيما بدا أنه حجرة نوم . كنت ما أزال مرتديًا ملابسي وقدميّ كأن الدم قد تجمد فيهما من طول ارتدائي للحذاء. أما هي، فكانت تتنفس براحة و هدوء مرتدية فستانها النبيذي ذا الوردات البيضاء على "الكولة" العريضة. تسللت إلى الخارج، ووجدتني في الصالة التي تذكرت أنني مررت بها في الليلة الماضية. لم أصدق في البداية لما سمعت تلك الجلبة المتواصلة لعجلات قطار تتناهى لي من بعيد، فانتبهت إلى أنني لم أنفذ قرار النقل في التاريخ المتعين على تنفيذه، وها أنا مقبل على أول يوم كان المفروض أن أكون فيه في مقر عملي الجديد.

لما داهمني صوت القطار و أخذ يهز جدارن الصلة حولي، اتجهت نحو الحمام مسرعًا وقد انتبهت إلى انتصابي بسبب حصرة البول. عبرت الردهة و التفت إلى الباب الأول. هذا هو المطبخ ولاشك. فتحت الباب الثاني و دلفت إلى الداخل . شهقت حين رأيت جثة رجل ممددة في حوض الاستحمام في ضوء الصبح الخفيف. كانت عيناه مفتوحتين فبدا متحديًا على نحو ما، وكان يبدو في سن تقارب سني، نصفه الأعلى عار وقد تلقى طعنة غائرة في رقبته التي كانت ما تزال غارقة في الدماء.

استدرت عائدًا ، وجريت هنا وهناك لا أدري إلى أين أذهب حتى صفّر القطار و سمعت قرقعة عجلاته بالكاد، فقررت العودة إلى الحجرة التي سبق لي أن تسللت منها ورائحة الدم تطاردني. وجدت الأريكة التي كانت عزة تنام عليها منذ لحظات خالية... أين هي إذن؟... رفعت صوتي أناديها و انحنيت أبحث بعيني أسفل الفراش و المقاعد.

اهتديت إلى باب الشقة و اتجهت نحوه هاربًا من رائحة الدم التي انعقدت في الجو تلطمني على وجهي. قادني صوت القطار الذي رحت أتبعه عبر دهليز وجدتني أخطو

في عتمته بعد أن فتحت باب الشقة، وبدأ الضوء يكشف الجدارن و الممرات، بينما رائحة الدم تطاردني.

لا أدري كيف وجدتني على الباب الخارجي ، إلا أنني سمعت من ينادي خلفي.

"يا أستاذ.. أنت يا أستاذ"

قفزت السلالم الأخيرة ورحت أجري في الشارع المواجه، حتى أول شارع عرضي، انحرفت داخله مواصلاً جريي دون أن أنظر خلفي، ودخلت في أول شارع آخر متفرع صادفني عن يميني. قلت لنفسي، و أنا أتلفت محاولاً الحفاظ على هدوئي، إن على أن أتمهل قليلاً حتى لا ألفت الأنظار.

كانت الشمس قد طلعت، و شعرت برطوبة أول النهار اللزجة تنضح على جلدي، على الرغم من المطر الذي كان يسقط رذاذًا ليلة أمس، فلماذا انقلب الجو فجأة هكذا؟...

تمهلت و أنا أسأل نفسي: ما الذي جرى لي؟

و كيف سمحت لنفسي أن أنساق و تناسيت أن على تسلم عملي الجديد الذي نقلوني إليه؟...

ولماذا فعلت عزة التي اكتشفت أنني لم أبرأ من حبها بعد ما فعلته معي؟

ومن هو ذلك المذبوح في حوض الاستحمام الذي رأيته في الصباح؟

كنت قد وصلت إلى مزلقان السكك الحديدية. كانت عشرات السيارات تزاحمها العربات التي تجرها البهائم و الناس في كل مكان، يعبرون جميعهم و سحابة غبار قد انعقدت في السماء و الأصوات عالية. اكتشفت فجأة- عندما شعرت أن يديّ خاليتان – أنني فقدت أهم شيء، وها أنا في كارثة حقيقية بالفعل. على أن أركز بشدة، توقفت أمام أول شجرة جاذورين صادفتها. قلت لنفسي: لو كنت فقدت حقيبتي في بيت المذبوح مثلاً فلا أمل لي في استعادتها، وهل أعود إلى مسرح الجريمة التي لم أرتكبها مرة أخرى؟...

أما إذا كنت فقدتها في المول، فمن المتعين على – عندئذ- أن أبحث عن هذا المول الذي لا أتذكر اسمه الآن مطلقًا.

عاودت سيري و أنا أشعر بحجم الكارثة يتضاعف. بحثت عن علبة سجائري، و لحسن الحظ و جدتها في جيب السترة ، كما كان هناك بضعة جنيهات أيضًا ، فتذكرت أنني تعودت أن أضع الأوراق المجمدة في جيب البنطلون الخلفي و أغلق زرار الجيب. مددت يدي لأتأكد، و فوجئت أن لدي ست أوراق من فئة العشرين جنيهًا تخروش بين أصابعي و أنا أعدها. أشعلت السيجارة و مضيت أحاول

شق طريقي. أغلب الظن أنني نسيت الحقيبة في ذلك الملهى الذي يطل من على جانبيه قطان يتبادلان الضحك و الغضب، وهو علة أية حال- الأمل الوحيد الذي تعلقت به.

كل ما أعرفه عن هذه المدينة أنها تطل من شمالها على البحر لكن محطة السكك الحديدية القديمة كانت في قلبها، أما جنوب المحطة فكان وحده مدينة جديدة أنشئت إبان سنوات الهجرة إلى الخليج، كما أخبرني صاحب كشك السجائر الذي تحدثت معه قليلاً، عندما هبطت من القطار أمس.

سألت نفسي: الأرجح أن هناك أكثر من مول.. أليس كذلك؟ إذن فعلى أن أبحث عن مول القطين. والأهم من كل هذا، ذلك الرجل المذبوح في حوض الاستحمام، والذي خلفته ورائي منذ قليل. كانت عيناه مفتوحتين ثابتتين واجهتاني عندما فتحت الباب.

في هذه اللحظة شعرت بالحاجة للتبول، ورحت أتلفت حولي قبل أن أفقد السيطرة على نفسي. لحسن الحظ رأيت مسجدًا صغيرًا على ناصية الشارع، فاندفعت نحوه.

خلعت حذائي وعبرت إلى الميضأة التي خمنت مكانها بسهولة. كانت دورة المياه نظيفة و خالية. أمكنني أن أنهي شئوني الصباحية بسرعة، بل وغسلت وجهي ورقبتي وقدمي بالماء، ثم عدت أدارجي يقطر الماء مني. وما إن خطوت إلى الخارج حتى أشعلت سيجارتي الثانية. تذكرت أن ما جرى من عزة- إذا كانت هي عزة حقًا- كان محيرًا و كلامها عن ابنتنا الراحلة هند ثم اختفاءها على هذا النحو و سقوطي نائمًا على الرغم من مقاومتي الضارية في الليلة الماضية.

أنا في كارثة حقًا...

مضيت أسير على غير هدى، أعبر الشوارع و الحارات و أقطع الميادين متلفتًا حولي، أتشمم الروائح متطلعًا إلى المحال و المطاعم و المقاهي التي فتحت أبوابها الآن.

من بين أهم عيوبي و أكثرها ضررًا لي كراهيتي لحمل الساعات. و الآن كم أنا محتاج لساعة، قبل تنفيذي لقرار النقل كنت عازمًا على شراء ساعة، لكنني تكاسلت دون سبب واضح في اللحظة الأخيرة. وها أن بلا ساعة أعرف بها الوقت بدقة في مدينة غريبة عني و غريب عنها.

شعرت بالجوع، غير أنني أشعلت سيجارة أخرى، وجعلت أحاول مغالبة الإحساس بغثيان الصباح ووجع الرأس. واصلت سيري مع ذلك و مشيت الهوينى داخل شبكة من

الحواري المعقدة المتداخلة. ثمة أطفال يلعبون في الوحل داخل خيمة من الغبار، و نسوة يتبادلن السباب و الشخر على أبواب بيوتهن، و أخرىات يملأن أوانينهن من حنفية مقامة على الناصية، و يترنحن وهن يفادين الأطفال و الرجال، بينما أوانينهن ثابتة على رءوسهن. كان الزحام فظيعًا و العشرات يتجمعون هنا وهناك على النواصي يتحدثون بصوت عالٍ، و أنا أسعى بينهم أحاول الخروج و أمسح العرق عن وجهي. وكلما انتهيت من حارة ، واجهتني حارة، ثم زقاق أصغر.

وعندما فقدت الاتجاه تمامًا، وجدتني قد خرجت إلى شارع رئيسي، قطعته مغالبًا دواري و محاولاً التنفس بعمق. كانت الرطوبة غير محتملة، وقلت لنفسي: ماذا تنتظر من مدينة على البحر؟ و تذكرت الآن أنني في أبعد مدينة نقلت إليها منذ انفصالي عن عزة، بل منذ عودتي من حفر الباطن عندما وقعت حرب الخليج، إذا استثنيت السنوات الأربع التي قضيتها في الخليج عندما استطاع خالي المستشار بالإمارات أن يوفر لي عقدًا بعد أن ألحت أمي الراحلة عليه.

كان تجنيدي قبل الحرب بشهور قليلة، ووقع الاختيار على فصيلتي المتخصصة في كسح الألغام، ضمن القوات التي رحلت إلى حفر الباطن. وبعد انفصالنا تنقلت بين عدة مدن متقاربة كلها بين ثلاث محافظات، وها أنا الآن في أبعد مدينة: تلك التي تطل على البحر.

غيـر أن المـول لاح لـي عبـر الميـدان الـذي وجـدتني قـد خرجت إليه. كانت مفاجأة جاءت في وقتها تمامًا و أنـا فـي قمة يأسي. ألقيت بالسيجارة و شعرت ببهجة شديدة و قلبـي ينتفض رغمًا عني، فقد كان هو بالفعل. نعم تذكرت اسمه الآن. "سلسبيل مول". لونه زيتي بدرجاته التي تتراوح بين الفسـتقي الفـاتح و حتـي البترولـي الـداكن. وعنـدما رفعـت رأسـي أصـابني الـدوار مـن ارتفاعـه، بـل وفشـلت فـي عـدّ طوابقه، و عشت عينـي لمعـة الزجـاج الـذي انعكست علـى سطحه أشعة الشمس و حوّلت المبني إلى كتلـة نـار ضـخمة فـي هـذا القـيظ الصـباحي، بعـد أن تغيـر الجـو و اختفـت السحب وبدت السماء قاسية خالية.

عبرت من البوابة ولم تصفر، فأشار لي رجل الأمن برأسـه ها هم الذين سبق لهم أن فتشوا حقيبتـي بـالأمس يتركـونني أمضـي إلـى الـداخل. لـم يتغيـر شـيء منـذ الليلـة الماضـية تقريبًـا. الرائحـة هـي نفسـها والوقـت لا هـو بالليـل و لا بالنهـار، و عشـرات المصـابيح و الثريـات و النيـون تشـتعل في كل مكـان، و النـاس يتـدفقون مـن كـل اتجـاه، فانخرطـت معهم على الفور باحثًـا عن ملهـي القطين. بعد قليل لمحتـه في نهاية أحد الممران فتوقفت لألتقط أنفاسي.

أبطأت خطواتي، و رحت أتلفت حولي أحدق للنسوة العابرات. على الرغم من أن القطين اللذين كانا يتبادلان الضحك و التكشير بالأنياب، وهما آخر ما أتذكره في الليلة الماضية، كانا بلا ضوء، إلا أنني استعدت مدخله سريعًا بسبب صور القطين – الأبيض و الأسود- المتجاورين يطلان قرب البوابة، كما استعدت في الوقت نفسه عزة التي كانت معي حتي ساعات قليلة مضت. ألم أجدها نائمة إلى جواري على الأريكة عندما استيقظت في الصباح؟

حين اقتربت، تبينت أن البوابة مغلقة، و أمامها سلسلة حديدية في وسطها القطان المصنوعان من المعدن يطلان متجاورين أحدهما يكشر عن أنيابه و الثاني منفجر في الضحك، وقرأت اللافتة الصغيرة المعلقة في اليمين بالعربية و الإنجليزية عن موعد الافتتاح في الثامنة مساءً.

ألجمتني المفاجأة..

معني هذا ببساطة أنني – حتي لو عثرت على حقيبتي في ملهي القطين عند افتتاحه في المساء، فإن على الانتظار يومًا آخر قبل أن أتسلم عملي الجديد... وهكذا أكون قد تخلفت يومًا دون عذر أو مبرر قانوني.... و إلى جانب هذا كيف أقضي كل هذا الوقت في التسكع قبل الافتتاح.

تضاعف إحساسي بالجوع فأشعلت سيجارة أخرى، عدت للسير أنفث الدخان حولي و أتفرج على المعروضات التي كانت تتقاطر عن يميني و يساري و الناس يصطدمون

ببعضهم البعض. لا أعرف من أين لي كل هذه الثقة في أنني سأجد الحقيبة في ملهي القطين؟

على أية حال، مقبل أنا على فترة عصيبة: عملي الجديد الذي تخلفت عن استلامه في موعده المقرر، وتلك التي لا أدري ما إذا كانت عزة فعلاً.. آه... و الرجل المذبوح في حوض الاستحمام. لشد ما أتمني أن أكون نائمًا ما أزال، و أن يكون كل ما جري لي مجرد كابوس ثقيل من بين الكوابيس العديدة- و الأحلام أيضًا- التي أدمنتها منذ أدمنت قراءة ألف ليلة و ليلة، أدمنتها لدرجة أنني أمتلك عدة نسخ منها، و أصطحب دائمًا معي في حقيبتي إحدي هذه النسخ. لا أمَلُّ مطلقًا من التقليب بين صفحاتها و إعادة قراءة الحكايات، بل و حفظت بعضها.

كنت قد انتهيت إلى ما يشبه البهو الفسيح الباهر الضوء، ثم آرش يفضي إلى الداخل و بعض المضيفين الممشوقي القوام و المرتدين بدلهم الداكنة بربطات عنق فاتحة متناثرين يرسمون على وجوههم ابتسامات واسعة تكشف عن أسنانهم. كانت قاعة استقبال مترامية و الرجال والنساء ينتظمون في تجمعات و منخرطين في الكلام و التلويح بأيديهم. كانت المقاعد و الفوتيهات و الأرائك تملأ الأركان، لكن أغلب الناس كانوا يتبادلون النقاش واقفين.

في البداية لم أصدق على الرغم من أنني لا يمكن أن أخطئ هذه الرائحة. إنها رائحة فول لا يمكن الشك في هذا، وها هي على مدخل القاعة عربة فول صغيرة، حقيقية، حولها التف عدد من الناس يتصايحون و يتخطفون السندوتشات من الرجل السمين الأبيض ذي غطاء الرأس الناصع و السترة الناصعة أيضًا وهو يبتسم للجميع. إنها عربة فول حقيقية عليها قدر كبير من النحاس الأصفر، ولابد أن خلفها يختفي أكثر من عامل ممن يعملون السندوتشات، و يناولونها لذلك السمين الأبيض الذي يناولها بدوره للآكلين. انخرطت وسطهم فقد كانت رائحة الفول لا يمكن مقاومتها.

أشرت للسمين بيدي و أنا أخرج له النقود، لكنه اكتفي بالابتسام و هز الرأس وهو يناولني أربعة سندوتشات في طبق ورقي.... "اتنين فول و اتنين فلافل" دون مقابل فيما يبدو، فانقضضت عليها ألتهمها وعيناي تدمعان من الفرح واللذة، ليس فقط بسبب الشطة الحارة التي أعشقها مع الفول و الفلافل، بل أيضًا بسبب جوعي على مدي يومين تقريبًا.

رحت أجول بعيني على الجدارن ، حيث كانت البوسترات معلقة متشابهة هنا و هناك. اقتربت من إحداها، ورحت أكتشف ما يجري الآن. إنهم يعلنون عن مؤتمر تعقده وزارة الثقافة حول قضايا الفولكلور و التغير الاجتماعي

في الريف، ثم أسماء شخصيات كبري مصرية و أجنبية. فهمت الأمر الآن فقط، فالمول يؤجر قاعاته مثلما يؤجر المحلات و صالات الأفراح. يا لحظي السعيد. هكذا يمكنني أن أقضي وقتي حتي تبلغ الساعة الثامنة، موعد افتتاح ملهي القطين.

وعندئذ لمحت مقهي بلديًا معتبرًا، يقدم الشاي و الشيشة. بادرت بالدخول و جلست أنادي الجرسون. يا لحظي السعيد. كان الرجال ببدلهم الكاملة، و النساء بفساتين و تاييرات صباحية يجلسون حولي يتناقشون بصوت عال، ومباسم الشيشة لا تكاد تغادر أفواه الرجال والنساء على السواء. كانت رائحة معسل التفاح الزاعقة تفوح في المقهي و أنا أرشف كوب الشاي الذي أتي به الجرسون المهذب، حتي جاء جرسون آخر بالشيشة. كان النسوة ينشرن في المقهي جوًا حميميًا وربما مثيرًا على نحو ما، خصوصًا بملابسهن الكاشفة عن النحور و الأذرع و السيقان. رحت أقاوم تطلعي لأعضائهن و تلفحني روائح عطرهن. كانت الفكرة لا بأس بها، غير أن أهم ما فيها أنها سوف تمنحني عدة ساعات حتي يفتتحوا الملهي.

ولـم أسـتطع أن أقـاوم الابتسـام، و أنـا أري عربـة حمـص الشام في ركـن قريـب يتصـاعد مـن إنائـها النحاسـي الضـخم البخار، وقد تحلق الناس حولها يواصلون جدلهم الصـاخب. وفي الركن المواجه أيضًا رأيـت عربـة كشري. نعم عربـة كشري، لكنها أضخم بطبيعـة الحـال من عربـة الحمص، و عليها أواني الأرز و المكرونـة و العدس، و البـائع وراءهـا يصلصل بمغارفه الألمونيوم. لا ينقصـنا –قلت لنفسـي- إلا بائع "غزل البنـات" لنصـبح فـي قلـب حـارة قاهريـة أصـيلة داخل المول.

شعرت و أنا جالس على المقهي أدخن الشيشة بحركـة غيـر عاديـة و سـرعان مـا نـهض النـاس مـن مقاعـدهم، فنهضـت معهم، و نظرت في الاتجاه الذي نظـروا إليـه. كـان صـوت المزمار البلدي و الطبلة يقترب رويدًا ، ثم دخل المسئولون على وجوههم ابتسامات واسعة جدًا، وخلفهم فرقة المزمـار البلدي، وخلف الفرقـة حصـان حقيقـي يمتطيـه رجـل يمسك بالأعنـة و يهزهـا، فيتمايـل الحصـان علـى أنغـام المزمـار و يلعـب بقوائمـه الأماميـة ثم الخلفيـة. صـفق الحضـور عنـدما انـدفع مصـورو الفيـديو بكشـافاتهم السـاطعة، و مصـورو الفوتوغرافيا يتقافزون هنا و هنـاك وقـد لمعـت فلاشـاتهم. و برشاقة بالغة قص المسئول الكبير شريط الافتتـاح، لتلتهـب الأكف تصفيقًا فاستدار المسئول ليحيـي الحضـور بابتسـامة عريضـة وهزة رأس. و بـدا وكـأنـه نسـي أمـرًا مـا، فاسـتدار مرة أخرى لينحني على طفلتين ترتـديان ملابـس الفلاحـات

الملونة و منديل بأوية يغطي رأس كل منهما. تناول منهما باقات الزهور، و مضي مع حاشيته إلى الداخل. كانوا يرتدون بدلاً داكنة، لكنني كنت قد لاحظت كرافتاتهم الزاهية الألوان تلمع تحت ضوء الفلاشات.

وجدتني أسير خلف الجميع حتي دخلوا مسرحًا فدخلت خلفهم، و عندما احتلوا مقاعدهم جلست على أول مقعد صادفني مثلهم. لم يضيعوا وقتًا فقد أطفأوا الأضواء إلا من كشاف واحد سُلط على مقدمة المسرح. كان ثمة رجل يرتدي بدلة سوداء لامعة و بابيونًا أبيض يبتسم بوجهه اللامع. تكلم قليلاً، و سرعان ما ارتفع صوته وهو يحيي المسئول بانحناءة، فاندلع التصفيق مرة أخرى ليظلم المسرح لبرهة قصيرة.

فتح الستار على عدد من الفلاحات يرقصن على الواحدة ونص في صف لحقه صف ثان. كن يرتدين جميعهن لونًا واحدًا تغلب عليه درجات البرتقالي، كاشفات عن سيقانهن البيضاء المسحوبة. أحصيتهن.. كن سبع راقصات في الصف الأول، وسبعًا أخرىات في الصف الثاني. كانت أجسامهن متماثلة تقريبًا و يتميزن بنحولهن البالغ، ثم أفسح الصفان مكانًا بينهما لراقصة أخرى تهادت متأخرة، و ترتدي جلبابًا بلديًا أزرق فاتحًا يقترب من اللون السماوي، لكنه كان أكثر عريًا، فهو يكشف عن جانب من ثدييها و ما فوق ركبتيها. كانت أكثرهن فتنة، و تقدمت المسرح وحدها

تتقصع على الواحدة ونص، وقد تركزت أضواء الكشافات على أعضائها التي كانت ترتعش طيعة و هي تقطع المسرح. وعندما انزلق منديل رأسها عن جزء من شعرها، تبينت على مهل السبب الذي جعلني أشعر بخطأ ما. كانت الموسيقى مضبوطة و الراقصات مقنعات على الرغم من رشاقتهن المبالغ فيها، إلا أن شعر الراقصة المنفردة التي ترقص وحدها كان أصفر ناعمًا تتناثر خصلاته على كتفيها. وركزت بصري فلاحظت أن عيون أغلبهن ملونة... هذه الفرقة ليست مصرية.... الراقصات فيهن شيء ما خطأ أحسسته في رقصهن منذ اللحظة الأولي.. تلكم العيون الملونة و الشعر الأشقر الذي تسللت خصلاته من مناديلهن.

تلك فرقة روسية بلا شك. كنت قد سمعت عن مثيلاتها في القاهرة تخصصت في سهرات الفنادق الكبري، بل و قرأت في الصحف إن هذه الفرق باتت تهدد الفرق الوطنية بسبب إقبال الجمهور على البيضاوات الشقراوات ذوات العيون الملونة.

تذكرت أيضًا أنني قرأت في الصحيفة اليسارية الأسبوعية التي اشتريتها أحيانًا أن الفرق الروسية تضم فتيات تعلمن الباليه منذ طفولتهن و أنفق الشعب هناك دم قلبه، لينتهي بهن الأمر هذا المآل بعد سقوط ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي.... أعتبر نفسي من الرواد الذين أتيح لهم مشاهدة البدايات الباكرة لهذه الفرق عدة مرات في الخليج، لذلك لاحظتهن على الفور و كشفت حقيقتهن.

أمـا الجمهـور فكـان قـد انـدمج مـع الفلاحـات الجمـيلات الرشيقات وراح يصفق بحماس، مما أثر على الراقصات فـرددن التحيـة بأحسـن منهـا : كشـفن عـن أرواكهـن المصبوبة، كما بالغت المتفردة في انحنائها إلى الوراء في حركات بدت صعبة للغاية، وفي الوقت نفسه كشفت عن كامل ثدييها، بل و كانت تغمز بعينيها و تؤدي رقصتها مصحوبة بإشارات جنسية واضحة.

أنهت الفرقة العرض الافتتاحي و حيّت الجمهور الذي استمر يصفق بعد إغلاق الستار ، لذلك عادت الفلاحات مرة أخرى للتحية أمام الستار فرأيت ملامحهن واضحة. بَدَوْنَ صغيرات السن مراهقات على الرغم من المكياج الثقيل الذي لطخن به وجوههن . كان اختفاؤهن إيذانًا فيما يبدو لانصراف المسئول مع حراسه الشخصيين الذين تحلقوا حوله وكادوا يخفونه تمامًا حتي خرجوا به بين التصفيق الحار. و سرعان ما انفرجت الستار عن منصة صعد إليها من نادي عليهم مقدم الحفل ذو البابيون الأبيض. كانوا خمسة :امرأتين و ثلاثة رجال بينهم أوربي أو أمريكي أحمر الوجه و يرتدي بدلة شأنه شأن الجميع.

مضوا يتنافسون في جدية بالغة و يستشهدون بأوراق أمامهم، وثمة رجل كانت مهمته أن يترأس الجلسة. أنذر

الجالسين بجواره أن أمام كلا منهم عشر دقائق لعرض وجهة نظره، ثم يفتح باب النقاش للجمهور، غير أنهم سرعان ما زاطوا بعد أقل من عشر دقائق. فهمت أن موضوع هذه الجلسة هو ما أسماه الرئيس بالتغير الاجتماعي في القرية المصرية و أثره على الأغاني و الأمثال الشعبية.

لم أدر ما إذا كان هذا الضجيج يعكس حيوية النقاش أم أن لا أحد يهتم بما يقوله الآخر، خصوصًا بعد أن غادر المسئول الكبير القاعة. رحت أغالب النوم الذي فاجأني دون جدوي، فلاشك أن منظري سيكون بالغ السخف وسط هؤلاء القوم المشاركين بحماس، حين يغلبني النوم بينهم و يرتفع صوت شخيري.

قالت بحلاوة لفظها:

"هات قفصك واتبعني..."

كانت عيناها مكحولتين كبلتاني، ووجدتني مشدودًا

إليها لا أفارقها، أحدق إلى جسمها اللدن تتمايل في

ملايتها اللف، حتي وقفت على باب بيت و طرقت

الباب نزل لها الرجل فاشترت منه مقدارًا من الزيتون ووضعته في القفص و عادت تبتسم لي قائلة:

"اتبعني"...

اشترت من الجزار و الفكهاني و النقلي و الحلواني و العطار، حملت كل هذا ببهجة بالغة ، بل وكنت متسعدًا لحمل أكثر منه في مقابل مجرد ابتسامة منها، أو نظرة التواطؤ و الوعود بين الحين و الآخر...

لم أدر إلا و المساء قد حل. أسرعت هي في خطوها، فأسرعت وراءها، وبدت خائفة تتلفت حولها. انتقل خوفها لي، لكنني كنت حريصًا على ألا تغيب عن عيني. في لحظة خيل لي أنها دخلت من باب هذا البيت، فشددت من عزمي، وعدلت القفص على رأسي وجريت خلفها. كان المدخل مظلمًا فانحشر قفصي و لم أستطع عبور الباب، فتوقفت خائفًا وحيدًا.

أين هي؟ هممت بالنداء عليها، لكنني تذكرت أنني لا أعرف اسمها فرحت أغمغم و أخرج أصواتًا كيفما اتفق و أن أقف في المدخل وقفصي محشور. هل تركتني و مضت إذن؟ ماذا أفعل في القفص المحشور؟ و لماذا كل هذا الظلام؟ حاولت أن أستدير و القفص على رأسي ما يزال، لكنني كنت أنا نفسي محشورًا أيضًا في الباب. جربت أن أزعق غير أن صوتي لم يخرج، فرحت أهز جسمي ورأسي محاولاً التخلص من القفص و الهروب بأقصى ما يمكنني من قوة خصوصًا بعد أن اختفت هي....

انتبهت و فتحت عيني. لا أعرف ما إذا كان جاري هو الذي دفع ذراعي الأيمن الذي كنت مستندًا إليه، أم أنني استيقظت من غفوتي وحدي. انقبضت و أنا أشعر بخوف

يجثم على صدري من هذا الحلم الذي هاجمني ما إن غفوت.

نظرت حولي و كان اللغط يتناثر هنا وهناك، بينما المرأتان و الرجال الثلاثة على المسرح ما يزالون يتابعون النقاش، وبين الحين و الآخر ينهض واحد من الحاضرين يشارك بكلام يسمونه "مداخلة" و يبدأ كل منهم كلامه أولاً هكذا:

"شكرًا سيدي الرئيس"...

يقولها مفخمًا حروفها و يتفحص الحاضرين بصلف قبل أن يتكلم.

لو أن معي ساعة فقط لقررت على الفور هل أمضي أم أستمر هنا حتي يجيء موعد ملهي القطين و أعود بالحقيبة. لا أدري لماذا أنا واثق إلى هذا الحد من أنني سأجدها في ملهي القطين. عدت أنظر إلى المنصة. بعد قليل خففوا من الإضاءة، و تبينت أن هناك، إلى يمين الجالسين، شاشة عرض سينمائي فاعتدلت ورحت أحدق.

خليك على عومي يا موج البحر
لا أقلع لك بمبي
و البس لك بمبي
واخدك على جنبي يا موج البحر

كانت أربعينية لعوبًا وحدها على الشاشة تتقصع، كأنها تمثل للنظارة دور مغنية قديمة تغني طقطوقة من مقاهي القاهرة في العشرينات، كما كان مكتوبًا على طرف الشاشة، و سرعان ما خرجت لها نسوة أصغر منها اصطففن خلفها. كن يرتدين جلابيب ملونة بألوان فاقعة يزحمن الشاشة بأعضائهن المكشوفة. كان المشهد بكامله غير متقن و كلهن يمثلن دون أن يمثلن، بل إن الكاميرا عندما اقتربت من الأربعينية كشفت عن عمرها الحقيقي، فكانت عيناها منتفخين و التجاعيد تملأ وجهها و غناؤها لا يتطابق مع حركة الشفتين، حتي النسوة الأصغر اللائي كن يرقصن حولها، كان رقصهن يتميز بإهمال واضح على الرغم من عربهن، فلم تكن حركة أجسامهن متناسبة مع الموسيقي، وكان ثمة خطأ ما في التصوير السينمائي يجعل الأمر بكامله باعثًا على الضجر.

شددت من عزمي، و نهضت بسرعة، واتخذت الطريق نفسها التي سبق أن اتخذها المسئول الكبير إلى الخارج.

وضعت يدي في جيوبي و سرت أبحث عن المقهي البلدي الذي كنت جالسًا فيه من قبل.

عدت أفكر في هذه الكارثة التي أوقعت نفسي فيها، على مدي حياتي الوظيفية في الإدارات التعليمية، كموظف شئون عاملين كفء، لم أرتكب خطأ واحدًا أحاسب عليه، مرة واحدة استدعاني المدير العام و فوجئت أن أمامه الصحيفة التي كانت قد وافقت على نشر إحدي خواطري في بريد القراء، و هو ما كنت قد دأبت على ممارسته منذ عامين تقريبًا. تفضل العاملون في الصحيفة باعتبار ما أرسله لهم مقالات موقعة باسمي ووظيفتي أكتب فيها ما يعن لي. ابتسمت لنفسي عندما تذكرت ما كنت أكتبه منتقدًا الاستهتار و اللامبالاة و عدم الالتزام الذي تفشي في البلاد و العباد، و تجرأت في بعض الأحيان بكتابة خواطر ، تفضل العاملون في الصحيفة مرة أخرى و اعتبروها قصائد، رغم أنها ليست مقيدة بوزن أو قافية، بل هي مما درج شباب الكاتبين على ممارسته في الآونة الأخيرة، وقرأت بعضًا منه في الدوريات الثقافية التي أحرص على شرائها منذ انفصالي عن عزة.

مضيت أشد أنفاسًا متلاحقة من الشيشة التي زودني بها الجرسون مع فنجان القهوة، و أستعيد هيأة المدير العام اللحيمة و هو يقعد على مكتبه الضخم. كان هذا آخر ما أتوقعه. فأنا لا أتجرأ على السلطة السياسية أو القيادة العليا

للبلاد، بل أنتقد السلوك العام و الفساد الذي فاق الحدود بكارثة، لأن لا أحد يهتم بمراعاة أبسط القواعد، و الجميع يخرأون في فسادهم و لا أعرف كيف يتحكملون روائحهم، وهو كلام في الحقيقة كنت أنفس به عن نفسي لأنني أعاني من كل شيء منذ استيقاظي في الصباح وحتي آوي إلى الفراش في المساء.

وعندما أشار المدير العام إلى الصحيفة لم أفهم ما يقصده في البداية، فقد مرّ على المقال نحو أسبوع، ثم إن الصحيفة التي أمامه شأنها شأن أي صحيفة أخرى مجرد أوراق مطبوعة. وعلى الرغم من أن الخاطرة، أو المقال كما تفضل السادة المحررون و نشروه في بريد القراء بشكل ظاهر و محتفي به ، كان عامًا شأن بقية ما أكتبه، إلا أنه كان عنيفًا بعض الشيء، عندما أشرت إلى ما يمارس من تنكيل بالناس إذا توجهوا للمصالح الحكومية لأي سبب من الأسباب، وحرصت على ألا أذكر أسماء هذه الهيئات و المصالح، لأن الأمر كان يتعلق بما تم ممارسته معي، عندما حاولت الحصول على نسخة ثانية من شهادة تجنيدي لتكون جاهزة معي إذا سنحت الفرصة للحصول على عقد عمل و السفر إلى الخليج والابتعاد عن مصر بكاملها.

كان المدير العام حريصًا على أن يؤكد لي أن الوزارة لا تحجر على رأي موظف و لا تفرض رقابة على موظفيها في عهد الحرية الذي نعيشه و تألو الدولة جهدًا في رعايته،

لكن على ألا أكتب وظيفتي تحت توقيعي و إلا طبقوا اللوائح التي تحدد وسائل معاقبة موظفي الدولة في هذا الخصوص، و أضاف أن على مع هذا أن أكون أكثر تعقلاً – وهذه نصيحة شخصية كما قال- فما أكتبه لن يضيف شيئًا أو يحذف شيئًا أو يؤثر في أي شيء، وكل ما في الأمر أنه يقل من ترقياتي و يعطل مصالحي.

تلك هي المرة الأولي – و الأخيرة- التي أتعرض فيها لموقف يمكن اعتباره تقصيرًا مني أو مساءلة من رؤسائي، فمنذ عودتي من "حفر الباطن" وبعد انتهاء خدمتي العسكرية ، كافئوني بالتعيين على الفور في قسم شئون العاملين بالإدارة ، و بعد عامين حصلت على إجازة بدون مرتب و سافرت للعمل في الخليج بعد توسط خالي المستشار و المقيم هناك منذ بضع سنوات.

غادرت مقعدي في النهاية بعد أن اكتفيت تمامًا من تدخين الشيشة. قلت لنفسي... لو أن حقيبتي معي لكان ممكنًا أن أتسلي بقراءة الصحيفة الأسبوعية التي اشتريتها قبل أن أستقل القطار وللأسف وضعتها داخل الحقيبة بعد أن قرأت العناوين فقط، بل وبدأت في قراءة إحدي الصفحات المثيرة التي كانت تكشف أسرار المليارات المنهوبة من البنوك و التي سرقها رجال الأعمال و المستثمرون.

رحت أطوف على القاعات متتبعًا صوت الموسيقى . تلك القاعة كان يقف على مسرحها عندما دخلت فرقة من الرجال المرتدين ملابس بلدية يعزفون على المزمار، و تغني أمامهم امرأة سمينة تغطي وجهها ورأسها لكن ثدييها عاريان و جلبابها الأسود شفاف يكشف عن طيات بطنها اللحيمة، وعلى العكس من جسمها السمين اللحيم كان صوتها ناعمًا لحقت به بحجة خفيفة و هي تغني:

يا ناس أن دبت دوب المحل في الفنجال
جسر القضيب اشتكي من شفة الخلخال
لا اعمل حجاب مغربي و أكلفه بأموال
وادعي بحرقه على اللي كرّهه فيّ ولا جاش

وتوقفت لتتيح الفرصة لتصفيق الحاضرين معبرين عن استحسانهم، ومضت تهز جسمها الضخم في فاصل كامل أتاحت فيه الفرصة لعزف فرقتها قبل أن تستأنف غناءها:

اوعي تاجي تحت قصر أمي و تنده لي
خليك مأدب عزيز أجي لك على مهلي
أحسن يسمعوك الهوانم يقتلوك يعني

عندئذ فكرت أن أتقدم لأجلس قليلاً أستمع إلى هذه المرأة التي يضج جسمها على الرغم من أنها كانت تغطي وجهها تمامًا ورأسها أيضًا و تواصل الغناء:

أوعي تاجي تحت قصر أمي و تقول يا ليل

خليك مأدب عزيز أحبك في هويج الليل

أحسن يسمعوك الهوانم يقتلوك يا عين

لم أجد مكانًا لي، فقد كان الزحام على أشده، و حماس الحاضرين و ثرثرتهم منعني تقريبًا من تفسير بقية أغاني المرأة اللحيمة ، و استدرت خارجًا.

القاعة التالية كانت أشد ضجرًا، فقد كانت الشاشة تعرض فيلمًا عن أقزام بدا من ملامحهم أنهم مصريون، و تأكد هذا عندما سمعت غناءهم.. كانوا يغنون أغنية أفراح شهيرة مطلعها:

ما تزوقيني يا ماما. أوام يا ماما

ده عريسي هاياخدني بالسلامة يا ماما

كان الأقزام الذين لا يتبين الواحد ما إذا كانوا نسوة أم رجالاً يتقصعون بملابسهم شبه العارية، و على خشبة

المسرح كان ثمة مائدة مستديرة يجلس حولها أساتذة يضعون أجهزة الترجمة على رءوسهم.

ازداد ضجري، لكن الوقت كان ما يزال أمامي طويلاً بلا شك، فقلت لنفسي بقيت قاعة واحدة، بعدها سأنطلق إلى الخارج أتفرج على المول حتي تقترب الساعة من الثامنة، فأتوجه إلى ملهي القطين. عندئذ تذكرت كرة أخرى تلك الكارثة التي تنتظرني ، فقد مضي على غيابي يوم كامل، وحتي لو تمكنت من تقديم أوراقي غدًا، فيمكنني أن أتحمل جزاء محدودًا، وهو الجزاء الأول على مدي حياتي الوظيفية. الأخطر هو ما جري لي مع عزة، أو تلك التي تشبهها، أو ربما هي بعد أن أصيبت بالجنون. كان كلامها عن هند مثلاً، ابنتنا التي ماتت، مثيرًا لريبتي منذ اللحظة الأولي عندما تحدثت عنها و كأنها ما تزال حية، ولما استيقظت من النوم و فوجئت بالرجل المذبوح في حوض الاستحمام، تأكدت أنه قد تم اصطيادي إلى فخ قادني إلى كل الفخاخ التالية، غير أنني مع ذلك لا أنكر أن لقائي بها قد زلزلني تمامًا، بعد مرور قرابة ثلاث سنوات على انفصالنا الذي أجبرت عليه تقريبًا، و الذي كنت حريصًا عليه في الوقت نفسه. كنت أنا الذي أتقدم دومًا بطلبات النقل من الإدارة التي سبق أن جمعتنا معًا إلى إدارات أخرى بعيدة، و ما ألبث أن أطالب بإدارات أبعد، حتي أننا لم نلتق مطلقًا خلال انفصالنا، فلقد كنت حريصًا، ليس فقط على تجنبها هي شخصيًا، بل و تجنب أي أخبار عنها. و

إذا كنا قد تزوجنا بعد قصة حب سريعة، إلا أن السنوات الثلاث التي قضيناها معًا كانت كافية لأن أهرب بجلدي إلي أقصى ما يمكنني. عندما خطبتها من أسرتها كان المستقبل يبدو أمامنا مشرقًا، فقد كنت عائدًا لتوي من الخليج بعد أن صفيت كل أوضاعي و عدت لما عرفت أن أمي مريضة. كان هذا هو مرضها الأخير و لم يتح لي إلا أن أشارك في جنازتها ، فلقد ماتت في اليوم السابق لوصولي.

وهكذا.. كنت وحيدًا ولدي شقة و مبلغ لا بأس به. كما أننا- عزة و أنا- لم نكن نحلم إلا بأقل القليل و المهم أن نكون معًا و الحقيقة أنني لم أتحمل أن أنام في الشقة وحدي أيضًا بعد موت أمي... لكل هذا لم نستغرق أكثر من خمسة شهور فقط منذ خطبتنا، وحضر من تبقي من أهلي، وهم لم يزيدوا على أصابع اليد الواحدة، زفافنا السريع شبه الصامت بسبب حالة الحداد على أمي.

في هذه الفترة كنت قد اكتشفت أنني غير صالح للاستمرار في أداء الدور الذي استمرأته أثناء ذهابي إلى المسجد القريب.

و الواقع أنه لم يكن دورًا تمثيليًا تمامًا، فموت أمي كان أحد الأحداث الكبري في حياتي. ووجدتني منجذبًا لأداء صلاة

الفجر في المسجد القريب من بيتي، ولم يكن مهمًا في البداية أن أستمر في الصلاة بقية اليوم لأن دفقة السكينة التي تمنحها لي صلاة الفجر كانت تمتد طوال اليوم.

ربما كان وقوعي في غرام اشتعل فجأة بيني و بين عزة هو السبب في نسياني كل شيء، وقضيت الشهور معها مستغرقًا تمامًا في كل صنوف اللهو المجنون الذي كانت لا تكف عن منحه لي أشكالاً و ألوانًا. في أول الأمر، أخذ معارفي من الشباب الذين تعرفت إليهم أثناء صلاة الفجر يستوقفني بعضهم في الشارع، و البعض الآخر زارني في البيت، يسألونني جميعهم عن سبب انقطاعي عن الصلاة معهم، فكنت أتحجج بحجج كثيرة، حتي توقفوا من تلقاء أنفسهم عن إلحاحهم الذي كان قد وصل إلى حد المطاردة، بل وشعرت بخوف راح يتزايد، خصوصًا حين كنت أشعر بهم يراقبونني منذ أنحرف إلى شارعنا.

على أية حال، كانت الشهور الأولي غرامًا مشبوبًا بيني و بين عزة، فقد كانت هي أول من عرفته، إذا استثنيت مرتين أو ثلاثًا مع مومسات، إلا أنها لم تكن كافية بطبيعة الحال لأي إحساس حقيقي. وعندما حملت، لم تسعها الدنيا من الفرحة و منحتني المزيد من ليالي و صباحات الحب. عشقنا معًا أن نمارس الحب بمجرد أن نفتح عيوننا في الصباح، ثم نأخذ حمامًا مشتركًا و نمضي إلى عملنا . وعرفنا عند الطبيب أن جنيننا ولد فأسمته طارق، ولكنها

أجهضت في الشهر السادس، و بدأت متاعبها التي لم تتوقف حتي انفصالنا. كانت متاعب خفيفة أول الأمر، وهو ما دعاني لأن آخذها و نمضي أسبوعين على شاطئ البحر، بعد أن خرجت من المستشفي، حاولت خلالهما أن نتجاوز أزمتنا، و مع ذلك تزايد خوفها عندما عدنا، و أخبرتني أن هناك أشرارًا يتربصون بنا و علينا أن نأخذ حذرنا.

تحول الخوف إلى رعب جعل يستبد بها إذا خرجت في المساء للقاء أصدقائي القدامي على المقهي، كما رفضت أن أصحبها – كما كنا نفعل قبل إجهاضها- إلى بيت أهلها و العودة بها بعد انتهاء سهرتي، وقالت لي إنها لم تعد تتحمل نظرات زوجة أبيها.

أما الكارثة الحقيقة فكانت بعد موت ابنتنا هند، فقد رفضت أن تصدق أنا ماتت، وعرفت فيما بعد أنا لجأت إلى المشايخ لمواجهة هؤلاء الأشرار الذين يستعينون بقوة الجان لقتل أولادها، فعرضت عليها أن نلجأ لطبيب فهي تعاني من ضغوط و أحزان...

وكل ما يمكن قوله في هذه الظروف، إلا أنها رفضت تمامًا، فقد كانت متأكدة أن هند اختطفت و لم تمت.

تلك القاعة، بدت لي آخر القاعات المخصصة لانعقاد المؤتمر الثقافي، فدلفت إليها عازمًا على ألا أمكث طويلاً، بعد أن أصابني الضجر من كل القاعات لتي عقد فيها ما أسموه "موائد مستديرة"، كما لاحظت في اللافتات المعلقة على باب كل قاعة. كان المسرح في الداخل مزدحمًا بالعازفين و العازفات الذين اكتشفت على الفور أنهم عميان، ليس فقط لأنهم كانوا يشزون عن اللحن بوضوح شديد، بل لأن عيونهم المشوهة بدت واضحة تحت ضوء الكشاف المبهر و هي ترتجف دون أن تتأثر بالضوء. كان الجزء الخلفي في أقصى المسرح يضم صفًا من الرجال المرتدين بدلاً سوداء و بابيونًا أحمر، والنساء المرتديات جلاليب سهرة بدرجات الموف، و تلمع ورداته الفضية اللامعة على مفارق نهودهن.. قلت لنفسي:

حتي أنتن!.. و توالت صفوف العازفين من الرجال و النساء أيضًا.

البعض يقف إذا كانت آلته تستلزم ذلك، و أغلبهم يجلسون يواصلون عزفهم.

كان المشهد أكثر كآبة مما أحتمل، ففساتين النسوة العميلاوات كانت محبوكة على أجسامهن و نهودهن مكشوفة ، بينما عيونهن المشوهة ترتعش و هن يلامسن آلاتهن الموسيقية أو يشاركن في الغناء كيفما اتفق، فالموسيقى في وادٍ و المغنون في وادٍ آخر. وفي لحظة، حزمت أمري و غادرت القاعة الأخيرة، و استقبلت ما بدا لي أنه بوابة خارجية لكل القاعات التي شغلها المؤتمر الثقافي.. قلت لأتفرج على المول حتي يقترب موعد ملهي القطين في الثامنة.

كانت الأضواء المتناثرة في أرجاء المول، بدهاليزه و تقاطعاتــه و محلاتــه و مصــاعده المتنــاثرة و ســلالمه المتحركـة، تحيـل الـدنيا مـن حـولي إلـى نهـار و ليـل معًـا، لكنني مع ذلك قدّرت أن الساعة اقتربت من الخامسة على الأقل، أي إن أمامي ثلاث ساعات تقريبًا من التسكع.. أما كـان مـن الأجـدر بـي أن أقضـي اليـوم بكاملـه فـي المـؤتمر الثقافي الذي يكفل لـي علـى الأقل أن أشـرب شـايًا و أدخـن الشيشة، بل و أتناول طعامًا إذا أحببت؟

غير أنني لم أحتمل كل هذا الضجر، كما شعرت بالخوف يطبق عليّ، و يقودني لانقباضات متتالية تؤلمني بالفعل، و إن كانت لا تستمر إلا لثوان قليلة. على يميني كان محل متخصص فيما يبدو في الملابس الداخلية للنساء: سوتيانات من كل الأشكال و الألوان و المقاسات معلق بعضها على أغصان الأشجار أو تقبض على أطرافه بأنيابها اللامعة ثعالب و ذئاب وقنافد،و البعض الآخر ترتديه أنصاف المانيكانات المسندة رءوسها إلى الجدار القريب... كيلوتات و بدايهات و كومبولوزينات و جوارب ترتديها نساء ناضجات و شابات و مراهقات في طريقهن للفراش أو خارجات من الحمام أو واقفات يتسكعن في الطريق العام مما منحهن إثارة إضافية. كانت المانيكانات الكاملات بالذات تملكن قوامًا باذخًا ووقفات اجتهد الصانعون في

تنويعها من ركض إلى هرولة إلى سير الهويني وسط ديكور يتألف من غرف نوم و غابات و شواطئ. بدأت رغبتي في التبول بسيطة في البداية يمكن تأجيلها قليلاً، لكنها تصاعدت فجأة، فرحت أبحث هنا وهناك بعيني ... ثم أسرعت خطواتي قاطعًا ممرًا ثم دهليزًا حتي اهتديت إلى مرحاض مرسوم على بابها وجه رجل بشارب و لحية. بدا كأنه بناء منفصل، مترامي على نحو غير مألوف بأضواء نيونه الساطعة على صفين متواجهين من المباول الأنيقة بلون سماوي رقيق ووشيش الماء أسمعه خافتًا. على يساري كان يمتد ممر على جانبيه بدت أبواب المراحيض بيضاء. أما المرايا فكانت أمامي و خلفي تضاعف من حجم كل شيء. عدلت جسمي و ملت أخرج عضوي، لكنني انتبهت إلى أنني لست وحدي من الأصوات التي رحت أتبينها.. كان ثمة ما يشبه الهمسات المبحوحة أولاً، إلا أن هذه الهمسات ما لبثت أن تحولت إلى أصوات شخر و نخر و ضحك متهتك، و رأيت في المرايا كهولاً وصبية يتقاطرون خلفي خارجين. تلبسني رعب حقيقي، فأنا أخشى هؤلاء المثليين ولا أقدر على مواجهتهم، لذلك احتبس البول في مثانتي و رحت أجاهد ألمي....

عندئذ تذكرت تجربتي الأولي و الأخيرة أثناء دراستي الثانوية. كنت أسمع زملائي وهم يحكون عن تجاربهم مع الخولات و النقود و السجائر التي يحصلون عليها منهم، إلا

أن الأمر تم بالمصادفة، فقد وصلت إلى المدرسة متأخرًا كالعادة، لكنهم رفضوا دخول المتأخرين فركبت الأتوبيس لألحق بموعد أي سينما، و احتك بي رجل بدا سمينًا... يتحسسني بمؤخرته . وعندما وصل الأتوبيس إلى الميدان، استدار نحوي مبتسمًا، وهمّ بالكلام، ثم انقبض وجهه كأنما يتألم من شيء ما. أخيرًا.. أشار برأسه، بل و كاد يدفعني للنزول.

هبطت من الأتوبيس وهو خلفي، وتطلع إلى قائلاً:

"تعالى نتمشي...".

سرت بجانبه حريصًا على ألا نتلامس، فقد كنت خائفًا منه، سألني عن فريق الكرة الذي أشجعه، فأجبته على الفور متغلبًا على ارتباكي. مد يده يربت على كتفي قائلاً إنه أحس بذلك وها نحن متفقان في تشجيعنا للفريق نفسه. عبرنا جسرًا على النهر وهو يحكي لي عن المباريات التي شهدها حية في الملاعب، و دعاني لنشهد معًا أول مباراة لفريقنا المشترك.. وهكذا أستطيع منذ الآن أن أزهو بين زملائي، و سوف أستمتع للمرة الأولي بمباراة حية...

دلفنا إلى الشارع بعد أن انتهينا من الجسر. كان هناك سور من الأشجار القصيرة المتتابعة، انتهي إلى بوابة من الحديد المشغول بجوارها شباك للتذاكر. اشتري تذكرتين ، و

فوجئت لما دخلت بحديقة بالغة الجمال في ذلك الصباح الشتوي البعيد....

أحواض زهور في كل مكان، وممرات تحف بها الأشجار، و مقاعد من الحجر و الخشب و أكشاك متناثرة هنا و هناك. أعطاني سيجارة ولامس يدي و هو يناولها لي. أشعل عود الكبريت و قرّبه من سيجارتي، فنظرت إليه لأجده كأنما يكتم ألمه فزاد خوفي منه. قادني وهو يثرثر في الممر القريب الذي كان مختفياً تقريبًا بين صفين من الأشجار القصيرة. استوقفني متلفتًا حوله ثم حزم أمره و أخرج عضوي بخفة و بما يشبه الرقة و راح يدلكه.. لحظتها سمت شهقته المتألمة واضحة... فابتعدت بعيني و زاد ارتباكي على الرغم من الغلمة التي أحرقتني تقريبًا. ما هالني أن الحديقة، من مكاني المرتفع ذلك وقد أشرفت عليها، كان يتناثر في ممراتها و بين أحواض زهورها و في أكشاكها أزواج من الرجال و الشباب و المراهقين. جررتني إذن يا ابن القحبة.. هذا ما قلته لنفسي لحظتها و تلبستني حالة من الغضب، لكنه كان مشغولاً بعرك عضوي. و مع ذلك فإن ما كان يضاعف من غضبي أنني كنت استشعر اللذة المشوبة بألم حارق.

تخلصت منه بضربة قوية على ذراعه و أغلقت سوستة البنطلون بسرعة، واستدرت عائداً وهوو رائي يهرول. وعندما شعرت بالتعب أبطأت خطواتي فلحقني . مد لي يده و هو يجاورني بعلبة السجائر. ترددت قليلاً، فقدم لي علبة

السجائر كاملة و أشعل لي سيجارتي ثم تبعني إلى باب الحديقة.

كيف أتخلص منه...؟ قلت لنفسي و أنا أخطو خارج الباب. وجدتني أكاد أركض مضاعفاً من خطواتي و مبتعداً عنه، لكنه تبعني راكضاً هو أيضا فالتفت إليه صائحاً:

"ارجع يا خول يا ابن الوسخة..".

استدرت عائداً إلى الجسر الذي يربط بين طرفي النهر دون أن أنظر خلفي نظرة واحدة، فقد تضاعف خوفي من لهاثه وصوت أنفاسه و هو يجري خلفي يكاد يلحقني. لم ينقذني إلا مجموعة من الشباب كانوا يلوحون في الطريق.

كان البول ما يزال محتبساً في مثانتي و الألم يعتصرني و كانوا قد عبروا من ورائي، وبدت دورة المياه خالية تمامًا. انسحبت متجهاً إلى الحوض. ضغطت على الآلة و تلقيت دفقات الصابون على كفي. غسلت يدي جيدًا بالماء الدافئ، ثم ضغطت على الماء البارد وحده وغسلت وجهي جيدًا بدفقات صابون إضافية. جففت نفسي قدر الإمكان بالاستسلام لتيار الهواء الساخن المنبعث من الآلة الأخرى.

انساب بولي أخيرًا، لكنني قضيت وقتاً طويلاً، و تنفست بكل راحتي شاعراً بالسكينة عندما انتهيت. مضيت عائداً إلى المول. أشعلت سيجارة أولاً، و استندت إلى السور الحديدي و مشرفاً على المصاعد والأدوار وعقود النجف و المصابيح المتلألئة في كل مكان.

إلى أين أذهب؟..

هل أهيم على وجهي دون هدف؟....

نعم.. سوف أتسكع كما أشاء، و أبحث عن سجائر. ليتني أجد أي صحيفة من الصحف اليومية التي انقطعت عن شرائها منذ زمن، مكتفيًا بنشرات الأخبار التي يتصادف و أري لقطات منها في التليفزيون.. أما الآن، فأنا في أشد الاحتياج لصحيفة، و على ألا أنسي أن هناك جريمة ارتكبت في مكان قضيت فيه ليلة كاملة و ربما أفادتني صفحة الحوادث في معرفة أي تفاصيل.

و في كل الأحوال، يجب أن أعترف بخطئي و مسئوليتي. استسلمت لنزوة دخول المول، ولم أكتف بذلك، بل وولجت ملهي القطين، و كانت النتيجة تغيبي يومين عن تسليم نفسي للإدارة، ورجلاً تركته مذبوحًا في حوض الاستحمام، و المرأة التي قالت إنها عزة...

لأفكر في الأمر قليلاً.. أليس محتملاً أن يكون هناك لبس ما؟

ربما كنت أشبه واحدًا تعرفه المرأة، و لماذا تشبه هذه المرأة عزة كل هذا الشبه، ولماذا لديها طفلة اسمها هند مثل ابنتي الراحلة؟

أفضل ما يمكن عمله الآن، لو وفّقت ووجدت الحقيبة في ملهي القطين أن أقضي ليلتي في أي فندق صغير في المدينة، وفي الصباح أسلّم نفسي للإدارة و أنفذ أمر النقل، وأقصى ما يمكن عمله معي هو احتساب اليومين إجازة عارضة.. المهم أن أجد الحقيبة.

واصلت سيري أبحث عن سجائر و صحيفة ، حتي لو كانت صحيفة مسائية، فأغلب الظن أنني لن أجد صحيفة صباحية. و دلفت إلى أول ممر صادفني. تركت نفسي أتوقف مكتفيًا بالفرجة من بعيد و التطلع إلى المعروضات التي ترامت خلف الحواجز الزجاجية. لمحت أشكالاً و ألوانًا من الأحذية والصنادل و الشباشب، أما الأحذية الرياضية فكانت صفوفها الملونة تملأ قسمًا لا يمكن حصره. رجال و نساء و أطفال و عجائز يرتدون ملابس الخروج و النوم و أزياء العمل. يجلس البعض على مكاتب، أو يتوجه البعض الآخر إلى أعمالهم ، متوقفين بالقرب من محطة الأتوبيس و كلهم يرتدون أحذية مدون عليها وحدها السعر.

عدت أتذكر كارثتي التي تورطت فيها و أنا أتلفت هنا وهناك باحثًا عن مكان لبيع الصحف.

ما جعلني أقترب من هذا الحاجز الزجاجي هو الهدير الذي تبينت صوته يتضح كلما اقتربت. كان هديرًا لأصوات ناس يهتفون ويزأرون، ثم يجأرون بالصراخ. كان ثمة ملعب وعلى أرضه اثنان و عشرون لاعبًا تسليت وقتًا بمهاراتهم الفردية، فقد كانوا بالحجم الطبيعي تقريبًا ، تومض الأضواء الملونة و تنطفئ، فيخيل لك أنهم يركضون هنا وهناك وسط هدير الجماهير.. انخرطت تمامًا فقد كانت الأضواء تومض و تنطفئ على نحو محكم و مضبوط: فهم يتوقفون بالفعل ما إن يسمعوا صوت

صفارة حكم المباراة... مضيت أتابع ضربات الجزاء و الضربات الحرة غير المباشرة. و رميات التماس، واللحظات الحاسمة أمام المرمي، و أتابع في الوقت نفسه الزي الرياضي المميز لكل لاعب بقوامه الممشوق و عضلاته الصناعية، و كل شيء عليه سعره.

امتدت قاعات العرض، تتلقفني قاعة تلو قاعة. خلف هذا اللوح الزجاجي العريض، كان هناك رجلان تتركز المصابيح الملونة على ما يرتديانه: الشورت و الحذاء الرياضي و الجوارب و القفاز و القناع الذي يحمي الرأس و جانبي الوجه، و ما لبثت المباراة أن بدأت بينهما، و اندلعت الأضواء الملونة ليبدوا و كأنهما يتلاكمان وسط هتافات الجمهور، لكن حركة الأضواء كانت عاجزة مع ذلك عن منحهما مظهر الضربات الطبيعية المتسقة مع حركة جسميهما و ساعديهما العضليين، ولم أتمالك نفسي من الضحك، فقد كان المشهد يتوقف بين الحين والآخر لتتركز الأضواء على الأوراق المعلقة على الأجهزة التي يرتديانها مبينة أسعارها، فيتوقفان بدورهما وكل منهما على وشك النيل من الآخر.

أما الحاجز الزجاجي التالي فكان يعرض صيادين يصوبون بنادقهم داخل غابة، لكنهم كانوا في المواجهة ، و إن كان نصفهم السفلي قد اختفي بين الحشائش و الأشجار القصيرة. كان البعض يرتكز على ركبتيه، و البعض الآخر

قد اتخذ لنفسه ساترًا من الأشجار. ما أخافني إنهم كانوا يتوجهون ببنادقهم التي تحمل بطاقة صغيرة عليها السعر بالإنجليزية نحو الجمهور، و عندما تنطلق الرصاصة، كنت أسمع صوتها و أشعر برد فعل الصياد حين يطلق النار فترتطم البندقية بكتفه، و تعلو أصوات حيوانات الغابة التي لا أراها: أسود و نمور و دببة قرود و ذئاب تتلقي رصاصات بالفعل فتزأر و تصرخ و تعوي.

ما إن استرددت أنفاسي، حتي وجدت أخرين على شاطئ النهر من كل الأعمار يلقون بسنانيرهم على حافة الماء، و على كل سنارة سعرها، غير أنها سنانير من أنواع لم أكن قد رأيت مثلها في حياتي مطلقًا. إنها أجهزة كاملة لها أسلاك و أزرار و خطاطيف. آلات أجزاؤها ملونة و بارزة و لها عدادات بل و لمبات صغيرة تومض و تنطفئ مع حركة الصيادين . لم يكونوا صيادين حقيقيين، بل رجال و نساء و أطفال بملابس الصيف الخفيفة، يترقبون مستغرقين تمامًا، و فجأة تجد أحدهم وقد رفع سنارته تحمل سمكة ضخمة فتعلو أصواتهم الفرحة بالنصر. تبدو السمكة كأنها ما تزال تتمسك بالحياة و ينتفض جسمها و هي معلقة بالشص قبل أن تنطفئ المصابيح الملونة، ثم بقية المصابيح لبرهة تتيح لي أن التقط أنفاسي.

عندما أضاءوا النور مرة أخرى، لم أستطع أن أحدد بالضبط: هل غادرت موقعي القديم، أم أنني ما زلت واقفًا

أمام الحاجز الزجاجي نفسه، و كل ما في الأمر أنهم غيّروا المسرح أثناء إطفاء الأنوار. لم تكن هناك فرصة لأفكر لحظة واحد، فقد انكشف ما وراء الحاجز عن جمع كبير من الرجال والنساء و الأطفال المرتدين مايوهات للسباحة، جلس بعضهم أمامي مباشرة تحت الشماسي الملونة، و يبدو الرجال والنساء في أوضاع عشق، ضاعف من سخونتها عريهم، فأغلب النساء ترتدين مايوهات بكيني تتلامس سيقانهن مع سيقان عشاقهن على الرمل الأصفر، بينما غابت أجسام الأطفال في جزء من البحر، على الشاطئ مباشرة. كان ثمة باعة و جرسونات يحملون بضاعتهم و يمضون على الشاطئ. سمعت وشيش الموج و صوت ضرباته المفاجئة، كما سمعت الأغاني و الصيحات و الضحكات، وشاهدت الأطفال يتراشقون بمياه البحر و يلعبون الكرة. وعلى امتداد الشاطئ، كان البعض الآخر يلعب كرة بالمضارب. بدوا جميعًا تحت شمس ساخنة لا ترحم، حتي إن الواحد كان يشعر أنهم لابد غارقون في عرقهم، على الرغم من أن المستلقين على الشاطئ لم يكن يثنيهم شيء عن المهارشة. أما بطاقات الأسعار بالإنجليزية، فكانت معلقة على كل شيء بلا استثناء: أغطية الرأس و المايوهات و الشماسي و المضارب و الكرات بل و أطواق البحر الخاصة بالصغار و جرادلهم و ورشاشاتهم و عصيهم البلاستيكية الملونة.

وجدتني أخطو إلى الداخل، بعد أن تأكدت أنني ما زلت أمام الحواجز الزجاجية لما مددت يدي و لامستها بالفعل. انفتحت أمامي ممرات أخرى كانت مختفية تضم معارض أصغر تمتد على الجانبين.... و بعدها مباشرة كانت معارض أخرى بلا حواجز زجاجية. و في لحظة اختلط الأمر عليّ، فقد أحسست بعيون حقيقية تتلصص على الرغم من التماثيل العديدة لرجال يتحركون أو يبدو و كأنهم بفعل حركة الأضواء . و الحقيقة إنه لم يكن ممكنًا إلا بصعوبة التعرف على الرجال الحقيقيين الذين يشغلون وظيفة المراقبين الأمنيين، والرجال التماثيل الذين كان دورهم لا يتجاوز أن يكونوا مجرد عارضين للملابس أو حاملين للآلات و الأجهزة المختلفة. رحت أشغل نفسي بالتحديق في نظارة بحر صغيرة معروضة في ركن وحدها. كان حجمها صغيرًا كأنها نظارة طفل شرائطها حمراء و عدساتها زرقاء و مصنوعة بإتقان شديد.

انشقت الأرض عن رجل يرتدي قميصًا بكم طويل و سروله من اللون نفسه. هزّ لي رأسه فحاولت أن أتذكر إذا ما كنت أعرفه من قبل، ثم تمتم بكلمات لم أتبينها، إلا أنني فهمت إشارته و تبعته. انتهينا إلى مدخل آخر واسع، مقسم إلى عدد كبير من الممرات، وعلى رأس كل ممر، امرأة ترتدي جيب وقميصًا بكم من لون ملابس المراقبين الأمنيين نفسه، جالسات جميعهن على مقاعد عالية تتيح رؤية أفخاذهن العارية من الجانب، و أمامهن آلاتهن

الحاسبة. كنت ما أزال مدفوعًا بالسير وراء الرجل الذي كان يلاحظني بطرف عينه. لم أكن أفكر في الهروب منه،بل كنت مستسلمًا تمامًا فهو لم يكن وحده وكان بوسعي أن ألمح كثيرًا منهم بزيهم الموحد، بل إن بعضهم كان يتدلي من على خصره حزام عريض ينتهي بعصا سوداء لامعة. ووجدتني قدام المرأة الجالسة أمام الآلة الحاسبة فجأة بحيث لم تكن هناك أية فرصة للفرار. وعاجلتني هي قائلة دون أن تبتسم:

"اثنان و ستون جنيهًا..".

مددت يدي إلى جيبي و أخرجت الورقات الست من فئة العشرين جنيهًا. تناولتها مني، و أعادت لي باقي نقودي، ثم دقت على آلتها، وقد مدت لي مبتسمة هذه المرة حقيبة صغيرة أنيقة، فأخذتها صامتًا و تابعت سيري إلى الخارج أتحسس ما بداخل الحقيبة. كما توقعت كانت نظارة البحر الصغيرة ملفوفة داخل كيس آخر. في هذه اللحظة فقط أدركت ما جري. كيف تورطت إلى هذا الحد، ولماذا لم أقاومهم؟ كان يمكنني أن أتحجج بأن النظارة أصغر من مقاسي، أو أنني لا أعرف العوم، أو كنت أرفض السير وراء الرجل أساسًا و منذ البداية.

أملك الآن ورقتين من فئة العشرين جنيهًا و بضعة جنيهات و على أن أعاود البحث عن الصحيفة و السجائر، لكنني توقفت غاضبًا هذه المرة من نفسي: لماذا استسلمت بكل هذه السهولة؟...

لقد توقفت عن التفكير تمامًا، وكان كل تركيزي ألا أعطيهم فرصة للتحرش بي و تنفيذ ما يطلبونه فورًا. كانوا مسيطرين على المكان ولا يمكن الفكاك من أي مخرج، و لذلك استسلمت بسرعة شديدة و لم أفكر قبل أن أنصاع. والآن على أن ألزم الحذر و أتجنب مثل هذه الفخاخ المنصوبة في كل مكان، و إن كان فخ وزارة الثقافة حتي الآن – أقل هذه الفخاخ ضررًا بل الحقيقة أن كله فوائد....

تذكرت شلة من أصدقائي اليساريين الذين كانوا يكتبون القصص و القصائد في السنة الأخيرة لنا في الجامعة. كنا من كليات مختلفة، وكنت أنا ممن يفضلون كتابة التأملات و الخواطر. كان هناك واحد منهم ما زلت أقرأ له بين الحين و الآخر في المجلات التي يتصادف أن أشتريها، هو الوحيد الذي تذكرته ولا أدري لماذا توقعت أن أراه في المؤتمر الثقافي. كثيرًا ما وزعنا المنشورات تضامنًا مع الفلسطينيين و اللبنانيين و تظاهرنا داخل الجامعة و خارجها ،لكن السبل تفرقت بنا ، ودخلت أنا الجيش، وما لبثت الحرب أن اندلعت ، و سافرت بالفعل إلى حفر الباطن عريفًا في فصيلة كسح الألغام. و عندما عدت من الحرب كافأوني بالتعيين في الإدارة.

كثيرًا ما حاولت أن أبعد شبح الانفصال بيني و بين عزة، غير أنها كانت قد تغيرت تمامًا بعد أن فقدنا هند. في البداية ، قالت لي إنها تفضل لو أنها أجهضت في هند مثلما

أجهضت في طارق. كان صعبًا عليها أن تفارقها بعد أن عاشت معنا شهرًا كاملاً في الحضّانة في المستشفي، ثم خمسة أيام في شقتنا حيث استخدمنا السرير الصغير الذي كنا قد اشتريناه لطارق. خمسة أيام فقط لكنها كانت كافية تمامًا لأن تشتعل النار في قلبها، ثم الجنون بعد أن واريتها التراب في مقبرة عائلتنا و بجوار أمي التي كانت قد سبقتها بعدة سنوات.

كنت مستعدًا لاحتمال كل شيء ، واحتملت الكثير بالفعل، إلا أن حالتها ازدادت تدهورًا ورفضت أن نذهب معًا لطبيب نفسي.

اتهمتني بالجبن و الخوف ممن اختطفوا هند مثلما اختطفوا طارق من قبل كما قالت... كانت قد انهارت تمامًا عندما ماتت هند بين أيدينا قبل أن أتمكن من الإتيان بالطبيب أو الذهاب بها إلى المستشفي، فناديت جاري و زوجته. تركت زوجته مع عزة، و اصطحبته حاملاً هند بعد أن لففتها في ملاءة سريرها. سار كل شيء بيسر، حيث استخرجت تصريح الدفن، و مضيت بها إلى المقبرة. و عندما عدت امتنعت عزة عن تبادل الحديث معي، و رفضت أن ترد عليّ. تحملتها لكنها سرعان ما اتهمتني فيما بعد بأنني سلمت هند بيدي للخاطفين، فهي لم تشاهد الدفن بعينيها، و قالت إنني خرجت بالبنت حية في المرة الأخيرة.

ها أنا أحمل الحقيبة الورقية البالغة الأناقة، و عليها اسم المحل بالإنجليزية F.U.S أتحسس بين الحين و الآخر نظارة البحر بأصابعي، و أتلفت حذرًا، بعد أن جردتني

المـرأة الصـغيرة الجالسـة علـى آلتهـا الحاسـبة بفخـذين عـاريتين، مـن نصـف مـا معـي مـن نقـود، و رحـت أفتش بعينـي مـرة أخـرى عـن كشـك لأشـتري الصـحيفة و علبـة السجائر.

دلفت إلى ممر أقل ضوءًا، علـى جانبيه كـان ثمـة أبـواب يخـرج منهـا أولاد و بنـات انـداحت رائحـتهم تمـلأ الممـر. توقفت في ركن خلت أنه أكثر عتمة. كان العطـر الذكوري للأولاد يختلط بعطر البنات الأنثوي الذي كـان مرحًـا علـى نحـو مـا، و يتـدفق يمـلأ المكـان مقتحمًـا. كـانوا يتهامسـون و هـم ينظـرون حـولهم. بـدت هيئـتهم مجنونـة قليلاً. فـالأولاد كـانوا يعـدّون نقـودهم التـي يخرجونهـا مـن جيـوبهم. كـانوا يبدون غير مكترثين بـأي شـيء، بمـا فـي ذلك إعلانهم عن نقـودهم الورقيـة التـي كـان بوسـعي أن أخمـن مـن ألوانهـا، علـى الأقـل بالنسـبة لأولئـك القـريبين منـي، أنهـا مـن فئـات كبيرة. أما ملابسهم فكانت متشابهة، فالبدلة الكحليـة الداكنـة مفتوحـة الأزرار و تحتهـا قمصـان مفتوحـة الأزرار أيضًـا بلون سماوي فاتح. البنات أيضًـا كن يرتـدين فسـاتين كحليـة بـلا أكمـام و يعلقـن علـى أكتـافهن حقائـب فضـية لامعـة متشابهة. كانوا يتمهلون و هم يعدّون نقودهم بلا اكتراث، و البنـات يهمهمـن و بعضـهن يتـأوهن تقريبًـا، وبـين الحـين و الآخر كانت إحداهن تقرقع ضاحكة و هي تصيح:

"يالهوي...".

فكرت في أن أعود أدراجـي بعد ن شـعرت بـالخوف منهم، و أحجمـت عـن المـرور بينـهم، فلابـد أن آخـذ حـذري ، و

يكفي أنني منذ قليل وجدت نفسي مجبرًا على شراء نظارة بحر لطفل. وفتشت عن ممر آخر، و ما لبثت أن انحرفت تجاهه.

أنت مرة أخرى...

تقدمت مأخوذًا تمامًا، فأشارت إلى القفص متأودة بينما انحسرت ملايتها اللف السوداء عن كتفيها. انحنيت أحمله على رأسي، ودخلت خلفها إلى دكان العطار. و مضت تتناول منه: عشرة دوارق ماء ورد وماء مزهر و ماء خلاف و غير ذلك. كانت لا تكف عن حبك الملاية حول كتفيها، و تبتسم بين الحين و الآخر. أخذت قدرًا من السكر، كما أخذت مرش ماء ورد ممسك وحصي لبان ذكر و عوداً و عنبراً و مسكاً، و انتهت بالشمع الإسكندراني، ووضعت الجميع في القفص.. قالت بصوت لا يسمعه سوانا. "احمل قفصك و اتبعني...".

تبعتها عازماً هذه المرة ألا تختفي عني. راحت تقطع الحواري و العطفات و الأزقة، وأنا أمضي خلفها حاملاً القفص على راسي، حتي وصلنا قدام الرحبة الفسيحة و أمامها دار عالية البنيان مشيدة الأركان بابها مصفح بصفائح الذهب الأحمر. مالت نحوي حتي أحسست

بأنفاسها المختلطة بالرائحة الحريفة المنبعثة من القفص على راسي. قالت:

"تحمل قليلاً.. هانت.."

شاكستها و أنا ألمس بكوعي ثديها:

"لو أعلمتيني كنا أتينا ببغل نحمل عليه كل هذا.."

خبطت ذراعي بدلال كدت معه أن أسقط على الأرض أنا و القفص. تماسكت بصعوبة، أما هي فدقت الباب الذي انفتح عن صبية رشيقة القد قاعدة النهد ذات حسن و جمال و عيون كعيون الغزلان ووجه كالبدر ليلة الاكتمال. سلبتني لبي هي الأخرى. كانت ترتدي قميص نوم بلا أكمام و شعرها مرفوعًا عن جبهتها و ملموماً على ظهرها في ضفيرة واحدة. مضيت أحدق إلى حبتي الرمان و بطنها المطوي تحت قميص نومها كطي السجل للكتب.

اضطررت أخيرًا للتقدم وحدي، فانتحت الصبية جانباً و احتككت بجسمها و أنا أخطو إلى الداخل .. ومشيت حتي انتهيت إلى قاعة فسيحة مزركشة ذات تراكيب و شاذورانات و مصاطب و سدلات و خزاين عليها الستور مرخيات وفي وسط القاعة سرير من المرمر مرصع بالدر و الجوهر منصوب عليه ناموسية من الأطلس الأحمر. توقفت فجأة. ها أنا وقعت في الفخ. اختفت هي و اختفت رائحتها. كنت مقتولاً من التعب و أحسست برأسي

مسحوقاً تحت ثقل القفص.. لو لم تدركني الآن، لوقعت من فوري، وهو ما جري بعد لحظات، فلم أشعر بنفسي.

طفلة صغيرة انحنت على بعد أن سقطت على الأرض. انفلتت من يد أمها و جرت نحوي. اعتمدت عليها تقريبًا لأنهض، ثم ابتسمت لها ورحت أتمتم ببضع كلمات. نادتها أمها فشدت جسمها مني و هي تبتسم بدورها. كانت جميلة دقيقة تشبه أمها، بل إنهما كانتا ترتديان تاييرًا بنفس التفصيلة و اللون الفستقي الساخن نفسيهما، و تعتمران ما يشبه القبعة الخضراء المحلاة بشرائط طحينية اللون. استدارتا تتابعان الفرجة على محل ملابس الأطفال. عندئذ انتبهت إلى بطن الأم الحامل و البارزة قليلاً بينما كانت الطفلة تستدير بين الحين والآخر و تنظر لي مبتسمة.

على أن أحدد الآن إلى أين أمضي؟ أمامي عدد من الممرات المتقاطعة، ولا أتذكر مكان ملهي القطين. كنت منذ لحظات غارقًا مع المرأة التي أرسلت لي من لحظها كل هذا التواطؤ، وكنت مستعدًا لحمل القفص والسير خلفها حتي آخر الدنيا. يبدو أنني أصبحت مدمنًا لألف ليلة بالفعل، وما إن أحصل على حقيبتي من ملهي القطين، و أستقر في هذه المدينة ، حتي أعاود قراءتي لأجزائها الأربعة بلا ترتيب، كما أفعل دائمًا.

المهم الآن أن أحزم أمري و أختار ممرًا محددًا أميزه حتي لا أعود إليه. تذكرت أنني كنت أبحث عن كشك سجائر و

صحيفة يومية. و لماذا الصحيفة؟ آه.. وعدت أتذكر الرجل المذبوح الذي تركته ورائي و تلك التي تشبه عزة. كان كل ممر تغطي جانبيه الحواجز الزجاجية، و خلفها تنتصب كل صنوف و شكول الملابس و التماثيل والآلات و الطعام و الشراب، وبين الحين و الآخر أصادف محلات مخصوصة لبيع البيتزا و محلات كنتاكي و فريد تشيكن و ماك برجر، تتصاعد منها روائح تقبض النفس و تحرك الأمعاء.

كان أشد ما يدهشني هو هذه الآلات التي يقف خلفها الرجال و النساء، ثم ما يلبثون أن يتلقوا نقودًا ورقية يعدّونها وهم يغادرون الآلة، و يدسون ما حصلوا عليه في جيوبهم بثقة. أين ملهي القطين إذن...؟ صدمني هذا التمثال فتوقفت على الفور.. كان مانيكان لمنقبة. نعم منقبة. رفعت عيني إلى اللافتة المعلقة فوق الحاجز الزجاجي و قرأت: نور الهداية ... مكتوبة بالنيون الأخضر و تومض و تنطفئ بسرعة شديدة، فشعرت بالدوار و أغمضت عين برهة قصيرة . كانت المنقبة الواقفة تمد قدمًا أمام الأخرى و تبدو في طريقها لموعد هام، علّقت حقيبتها على كتفها برشاقة و بجوارها امرأة أخرى محجبة بدت توجه لها كلامها و هما تمضيان إلى موعدهما. المنقبة جلبابها أسود بطبيعة الحال، لكنه مشغول بالترتر الأسود أيضًا، أما النقاب فهو من الحرير الأسود طبعًا، بينما المحجبة ترتدي كل الألوان تقريبًا. فالحجاب الذي يبرز جانبًا من الشعر أعلى الرأس كان برتقاليا و التي شرت ذو الأكمام الطويلة كان ورديًا

محبوكًا على خصرها، و البنطلون جينز أزرق بينما الكوتشي الذي ترتديه ماركة أديداس كما حرصت العارضة على إظهار الشعار وهي تمد قدمها لتلحق بالقدم الأخرى في طريقها، شأن زميلتها المنقبة لموعد هام. كانت كل قطعة من القطع مثبت سعرها عليها بالعربية و الإنجليزية. و إلى جانب المنقبة و المحجبة كان هناك أطفال و شابات و نسوة كلهن مرتديات أصنافًا و ألوانًا من الملابس الداخلية و الخارجية و الإيشاربات و الجوارب و الأحذية.

انتبهت أخيرًا إلى أنني الرجل الوحيد الذي يخطو إلى الداخل، فأوقفت نفسي و أنا أشعر بعيون المرأة المنقبة التي كانت تدلف إلى الداخل و هي تنظر نحوي و تغمغم بشيء ما . و في لحظة، و أنا أستدير مبتعدًا شاهدته... هو.. ملهي القطين... كدت أهتف فرحًا فقد كانت المفاجأة أقوي من احتمالي ، بل و كدت أضحك و أنا أتطلع مبتهجًا للقط الضاحك بشواربه و أسنانه الكهربائية، و عندما ينطفئ الضوء، يهتز القط الآخر على الجانب المواجه و تومض الأضواء الملونة على ملامحه لأراه غاضبًا مكشرًا عن أنيابه.

وجدتني قابضًا على الكيس الذي يضم نظارة البحر الصغيرة، فشددت قبضتي عليه، وعبرت البوابة راسمًا على وجهي ابتسامة. صعدت على السجادة الحمراء درجات قليلة، وما لبثت أن وجدتني في "الهول". لم أتردد،

وتقدمت إلى رجلين ضخمين يرتديان اليونيفورم المخصص للملهي فيما يبدو. واحد يرتدي بدلة القط الضاحك البيضاء، والثاني يرتدي بدلة القط الغاضب السوداء... قلت لهما معًا:

"من.. فضلك... لو سمحت يعني... أنا نسيت حقيبتي ليل أمس".

انحنيا كلاهما، ثم اصطحبني صاحب البدلة البيضاء إلى داخل الممر . انحني مرة أخرى قائلا:

"وان منيت يا لورد.. سأسأل لحضرتك..".

وغاب عني فاستدرت أتطلع إلى صور الراقصات المتناثرة، بعضها مرسوم بالحجم الطبيعي في أوضاع بالغة الإثارة، و بعضها الآخر معلق على الحائط في أوضاع أخرى: فهناك من تتحدث مع الزبائن، و من ترتشف من كأسها و تطل بنظرة مغوية، ومن ترقص على منضدة وسط الزبائن الذين يصفقون. أما العرض الذي سبق لي أن شاهدته للمرأة التي تجلد الرجل بالسوط قبل أن تتعري من كل ملابسها، فقد خصصت له إدارة الملهي قسمًا خاصًا على جزء من جدارين يشكلان معًا زاوية قائمة.

طال الوقت و أنا أتحسس نظارة البحر الصغيرة داخل الكيس الذي قبضت عليه. حاولت الانشغال بتأمل رواد الملهي الذين كانوا يدلفون صاخبين نسوة و رجالاً. ثم

داخلني خوف مفاجئ. لماذا تأخر الرجل الذي طلب إمهاله دقيقة واحدة؟ و أين تلك التي غامرت من أجلها؟ ألست واقفًا في المكان الذي سبق لي أن التقيت بها فيه؟ وهل سيأتيني بالحقيبة حقًا؟ في الحالة الأخيرة أنا على استعداد لتحمل كل شيء و معالجة الكارثة التي تورطت فيها على الفور.

كدت أحتضنه عندما رأيته يحمل حقيبتي و ينحني أمامي. لم أدر ماذا أفعل من أجله. تهللت و انحنيت عليه أختطف حقيبتي . نعم هذه هي حقيبتي. لم أعبأ به، وملت أفتحها و أتحسس مظروف أوراقي، وعندما رفعت عيني إليه، كان قد اختفي. وجدتني قابضًا ما أزال على نظارة البحر، فدسستها بكيسها و شددت السوستة.

حملتها وحاولت أن أمنع نفسي و أتجه إلى الخارج، إلا أن ساقي ثقلتا، فتوقفت. هل أستطيع أن أمضي هكذا دون أن أري من قالت إنها عزة؟ لماذا أغامر بالدخول؟ من الممكن أن أكتفي فقط بالبحث عنها بعين ثم أعود أدراجي خارجًا من الباب.

بدا وكأنني لا أقدر على التحكم في ساقي اللتين قادتاني إلى داخل الملهي. رسمت على وجهي ابتسامة سريعة للرجلين اللذين انحنيا لي، لكن أحدهما قدمني وقد بالغ في

انحنائه، فعرفت أنني مقبل على فخ آخر. كنت آمل أن أفلت منهما لأتطلع دقائق قليلة باحثًا عنها ثم أخرج. غير أن هذا الذي تقدمني، سيذهب بي بلا شك إلى منضدة و يأتيني بمشروب. لم أستطع أن أمنع نفسي من تحسس الورقات الثلاث فئة العشرين جنيهًا، و تذكرت أنهما ورقتان فقط، وهو على أية حال مبلغ لا يكفي ما سوف أتورط فيها بعد لحظات. رحت أسترق النظر هنا و هناك علّني ألمحها. لابد أن أراها. و يمكنني أن أهرب عندئذ، بل و يمكننا أن نهرب معًا، مثلما هربنا من قبل. لو كانت في ورطة، و أغلب الظن أنها في ورطة مثلي، و إلا ما جري ذلك الذي جري في تلك الليلة التي قضيتها مطحونًا من التعب و سقطت في النوم بمجرد أن مددت جسمي. لو كانت في ورطة إذن، فلن أستطيع أن أتركها و أمضي. هي الوحيدة التي يمكنها حتي لو لم تكن عزة، أن توضح لي حكاية لرجل الذي أكاد أنا أن أكون المتهم الوحيد بقتله.

ما كل هذه الألغاز التي تورطت فيها رغمًا عني؟..

أنا مجرد موظف في الإدارة التعليمية، و على أن أسلم نفسي و أوراقي و أوقع إقرارًا بالقيام بالعمل، ثم أبحث عن مكان للسكن و الاستقرار كما كنت أنوي. على أن أحرص على أوراقي داخل حقيبتي، و أمضي بهدوء نحو باب الخروج، غير أن الرجل ذا البدلة البيضاء كان قد وصل بي إلى المناضد و انحني يسحب مقعدًا، فاضطررت للجلوس ووضعت الحقيبة بين ساقيّ.

لحسن الحظ كانت مائدتي على الطرف، فأمكنني أن أري كل شيء. كان أغلب الموائد مشغولاً برجال و نساء متهتكين يتبادلون الحديث و القبلات و الدعك، بينما كان هناك آخرون قد اعتلوا "البيست" الذي توسط الموائد، يرقصون و يضحكون و يتهارشون. ما إن استقررت على مقعدي حتي عاجلني الجرسون برجاجة نبيذ و انحني يرص أطباق المزّة مبتسما مثل الليلة الماضية. و لما تشاغلت بالنظر إلى الرأقصين، تعلقت عيناي بتلك التي ترقص وحدها في مقدمة البيست... إنها عزة.. نعم... غيرت فستانها و ارتدت تي شيرت وجيب قصيرًا. بدت مخمورة تتطوح بذراعيها، ثم بدا و كأنها تمثل أنها مخمورة، فقد توقفت بعينيها على للحظات. كان ثمة تعبير على وجهها، وبدا وكأنها تحاول إبلاغي رسالة ما، إلا أنني لم أفهم ما يتوجب على فعله، وبدا أن الأسلم هو أن أغادر المكان، غير أن الجرسون كان ما يزال منحنيًا وهمس لي:

"فيه حساب الليلة الماضية على سيادتك يا باشا.. مائتان و سبعون جنيهًا..".

التفت إليه محاولاً التماسك وقلت:

"فيا بعد.. فيما بعد..".

كانت أصوات الموسيقى من حولنا عالية، و الراقصون يصرخون مع الموسيقى و يزدادون هياجًا. أما هي فكانت بدأت تفقد قدرتها على التمثيل، ولم يعد بوسعها أن تستمر

في أداء دور المخمورة، لكنني مع ذلك لم أشعر أنني غبت عن عينيها قط.

لكن الجرسون واصل:

"لا يا افندم... ستدفع كل الحساب الآن..".

"قلت لك فيما بعد...."

"ستدفع كل الحساب الآن.. ثلاثمائة و ستين جنيهًا..".

أسقط في يدي. لكن رجلين جاءا ممن يرتدون يونيفورم القطين الأبيض و الأسود أشارا لي فنهضت منحنيًا على حقيبتي و حملتها. رفعت صوتي و أنا أمضي بينهما إلى الخارج:

يمكنني أن أترك الحقيبة لديكم و في الصباح أعود بالنقود...

الحقيقة أنني فقدت نقودي لكنني سأسدد غدًا كل ديوني...

كانا قد قاداني إلى الخارج ، واصلت وهما يدفعانني الآن إلى منعطف أكثر عتمة:

"لقد اكتشفت الآن .. الآن فقط.. فقدت نقودي و أرجوكم إمهالي حتي الصباح فقط...:"

كان صوتي عاليا يتردد صداه في نهاية الصالة التي قطعتها خلفهما. توقفت عندما توقفا واستدارا لي. كان المكان خاليا ولا أحد أستنجد به، فأضفت في محاولة أخيرة وقد شعرت بثقل الحقيبة على ذراعي:

"لو تكرمتما بعرضي على السيد المدير أكون شاكرًا لكما.."

قاطعني أحدهما:

"أين ذهبت الليلة الماضية؟...".

فكرت سريعًا ثم أجبته:

"أنا لم أهرب من دفع الحساب... كل ما في الأمر أنني...".

"يبدو أنك مصرّ على المراوغة.. أسألك أين كنت الليلة الماضية ومع من هربت؟".

لم تكن لكمته مفاجئة فقط، بل تبعتها عدة لكمات سريعة، و أغمضت عيني اليمين التي تدفق منها النار. صرخت بأقصى ما يمكنني و أنا أتلوي محاولاً تفادي اللكمات دون جدوي.

شعرت بالاختناق، وحاولت فتح عيني اللتين كانتا تحرقانني، غير أن التراب كان يغطيهما، دعكتهما بيدي فازداد اشتعالهما تراب خفيف لزج؛ كان يغطي شفتي أيضًا، تعرفت على طعمه المائع وازددت اختناقًا. استعدت ما جري. نعم.. كان الرجلان قد ضرباني، ومازلت أشعر بلكمة ذلك الذي كان يرتدي اليونيفورم الأبيض على عيني التي أحسست بها تكاد تنفجر من شدة الألم.

تمالكت نفسي قليلاً عندما لمحت حقيبتي بجواري، ورفعت عيني لأجد نافذة عرضية معمولة من الحديد المشغول، و إلى يميني كانت هناك عشرات المانيكانات العاريات... واقفات و مهرولات ومكسورت الأذرع أو السيقان. بعضهن نائمات أو بلا رؤوس أن برؤوس، أو حتي ذلك الجزء الممتد من الكتفين إلى أسفل البطن. كان أجسامهن جميعًا عارية و تبدو ناعمة بلونها الوردي الفاتح، ولم أدر بنفسي إلا و أنا أتقدم ناحيتهن. انحنيت على أول امرأة، فحملتها و احتضنتها بقوة. رحت أراقصها و أنا أدور في المكان مصطدمًا بالنسوة الأخرىات. و ما لبث الغبار أن ثار، لكنني شعرت بانتصابي فجأة، فانفجرت في الضحك عندما اكتشفت أن رفيقتي التي تراقصني بساق واحدة، ومضيت أسعل بشدة من أثر التراب الناعم الذي كنت مجبرًا على استنشاقه.

عـاودت الـرقص مـع أخـرىات اختـرتهن بعنايـة كـاملات الأعضـاء، و كنـت ألصـق صـدري بقـوة بنهـودهن فأشـعر بـالألم. واحـدة مـنهن كانـت ملقـاة علـى الأرض مفتوحـة السـاقين، حملتهـا و دسسـت نفسـي بـين فخـذيها واشـتد ألـم انتصـابي فألقيـت بهـا غاضـبًا و عـدت أغمـض عينـي مـن لسعة الغبار.

بحثـت عـن علبـة سـجائري، ولمـا أشـعلت واحـدة داهمنـي الدوار، فاستندت إلى الحائط ، و تزايد السعال حتي شعرت بالاختناق فألقيت بالسيجارة أيضًا. لمحت حقيبتي، فانحنيت علىهـا وفتحتهـا لأجـد نظـار البحـر ثـم المظـروف الـذي يحتـوي علـى أوراقـي، و اصـطدمت يـدي أيضًـا بالصـحيفة الأسـبوعية المعارضـة التـي كنـت حريصًـا علـى شـرائها بسبب جرأتها و كشفها لأسرار الكبار، غير أنني لم أكن قد قرأتها بعد.

قلـت لنفسـي إن علـى أن أعتـرف بمسـئوليتي الكاملـة عمـا جري، فقد كان بوسعي أن أمضي خـارج المـول بمجـرد أن حصلت على حقيبتي و تأكدت من وجود مظروف أوراقي، لكنني تلكأت، وفشلت محاولتي في الخروج، ودخلت في الفخ المنصوب لي، وها أنا وقد ألقي بي في هذا المكان الـذي يشـبه مخزنًـا ضـخمًا. رحـت أسـير الهـويني بـين المانيكانـات ولفـات الأسـلاك الكهربائيـة و الصـناديق و الكومبيوترات: كيبوردات و ماوسات و شاشات و أحشاء

داخلية و قطع معدنية مختلفة الأحجام. توقفت أخيرًا عند الباب الخشبي الذي كان مغلقًا من الخارج بإحكام، وعندما هززته محاولاً فتحه، بدا موصدًا بقوة.

ماذا أفعل الآن بعد أن حبسوني؟

فردت الصحيفة لأتسلي بأي شيء. لم أكن أحب الصفحة الأولي، فهي تمتلئ بعناوين مثيرة لا يمكن للواحد أن يصدقها، و بالفعل عندما تقرأ تكتشف أنهم لا يتورعون عن الكذب و التدليس، لكنني في الصفحة الثالثة توقفت عند العنوان العريض:

أين ينفق رجال الأعمال المليارات المنهوبة من البنوك؟!!!

ومضيت أقرأ و أتسلي:

مليارات عديدة نهبت من البنوك بلغت أكثر من ٢٠ مليارًا. و تواطأ موظفو هذه لبنوك مع كبار المسئولين و الوزراء في نهبها عن طريق مستثمرين لم يكونوا يملكون شيئًا في الواقع في مقابل القروض التي حصلوا عليها.

فكرت في أن ألقي بالصحيفة جانبًا فأنا لا أحب هذه الأرقام الجافة، و تستهويني الوقائع و الأحدث. تابعت:

ما سبق مجرد مقدمة رقمية أو حسابية لنكشف حجم البلاء الذي باسمه ارتكبت كل الجرائم. و هذا البلاء هو القروض. وكانت نتيجة هذه القروض هروب العشرات من

رجال الأعمال بأموال البنوك إلى الخارج بعد أن نهبوا أموال أكثر من بنك.

ولكن لماذا تعثروا و أين ينفق رجال الأعمال كل هذه المليارات التي تنهب بلا رقيب أو حسيب. ولا يلتفت إلى حجم قروض رجل الأعمال إلا إذا خرج عن الخط المرسوم له أو اقترب من المنطقة المحرمة، وهذا ما حدث لرجال أعمال كثيرين ممن نهبوا أموال البنوك لسنوات، و لكن لم يستطع أن يقترب أحد منهم حتي تجاوزوا النقاط الحمراء والنتيجة هي فتح الملفات ووصل الأمر إلى الإلقاء بهم في السجون.

أحدهم مثلاً اعتاد أن يتناول طعامه الذي يستورده يوميًا من أفخم المطاعم الأوربية. كان يفضل دائمًا استيراد الوجبات الجاهزة و الطازجة من دول أوروبا و بصفة خاصة مطاعم باريس. و عندما تزوج استأجر كورنيش الإسكندرية بكامله و حوّله إلى سرادق خاص لإتمام زفافه، وظلت الإسكندرية لأكثر من ١٠ أيام تجهز لفرح الملياردير، وتم تحويل المرور بعيدًا عن الكورنيش و إغلاق الطريق. لم يكن يستورد الوجبات الثلاث بالطائرة له و لضيوفه يوميًا فقط، بل يستورد الزهور أيضًا ، وخصص مندوبًا يقف أمام باب المطار لاستلام طرد الزهور اليومي.

أما الملياردير المسجون حاليا في ذمة عدد من القضايا الخاصة بسرقة البنوك، بعد أن هرب عدة سنوات في أوربا و الولايات المتحدة ، فهو يسيطر على صادرات العديد من

السلع، و نجح في الحصول على عدة توكيلات لأدوات المكياج ، وظل حتي هروبه محتكرًا لتوكيلات بكاملها من مستحضرات التجميل العالمية. و كان معروفًا عنه منذ كان طيارًا في القوات الجوية قبل تقاعده عشقه للنساء و خصوصًا الممثلات و الراقصات . ومن لم تكن توافق على إقامة علاقة معه إلا من خلال الزواج، لا يتواني عن زواجها. كما كان يتفاخر بزواجه بعدد من أشهر فنانات و ممثلات الصيف الأول. دفع- على سبيل المثال- لإحدي الممثلات ٥ ملايين جنيه إلى جانب ما قيمته ١٢ مليونًا من المجوهرات التي أهداها لها في ليلتهما الأخيرة. وعندما صدّته إحدي الممثلات، قام بدفع الملايين من أجل الحصول على توكيل لأحد مستحضرات التجميل العالمية الذي تعشقه هذه الفنانة حتي يستميلها. ومن مصر، إلى أوربا واصل رحلته مع الحسناوات بعد هروبه، بل وصل به الأمر إلى شراء شارع في أسبانيا، و بالتحديد في العاصمة مدريد من أجل عيون فتاة أسبانية.

هارب آخر كان يوزع التليفونات المحمولة مجانًا على ناخبيه عندما دخل انتخابات مجلس الشعب و فاز بالفعل بعد أن أنفق قرابة ١٠ ملايين جنيه من المليارات التي اقترضها من البنوك. كان قد نجح في الحصول على عقود تجهيز المستشفيات الحكومية من وزارة الصحة في صفقة مشبوهة، تناولتنا أجهزة الرقابة السيادية بالتحقيق الذي لم يسفر عن شيء، بعد أن أنفق عدة ملايين أخرى لتغطيتها. و انتهيالأمر به بإسقاط حصانته التي كانت تحميه من التحقيق أو المثول أمام القضاء.. وهكذا بدأ فتح ملفاته، و

السبب معروف لدي لوبي رجال الأعمال، فقد توحش وبدأ يتملص من دفع الإتاوات المقررة عليه لكبار البلد و مسئوليها، مستندًا إلى شرائه لعدد من الكتاب و الصحفيين ، بل وكان قد بدأ قبل هروبه مباشرة في إجراءات إشهار صحيفة وحزب معًا في صفقة واحدة، وهو الأمر الذي تكلف نحو ١٠ ملايين جنيه..

توقفت عن القراءة بعد أن اهتزت السطور أمام عيني و امتلأت بالدموع. كل هذا كنت أعرفه، وقرأت مثيله سواء في هذه الصحيفة أو صحف المعارضة الأخرى. عدت أقول لنفسي: ماذا أفعل إذن وقد حبسوني الآن؟

مر يومان، وها أنا في اليوم الثالث. المؤكد أن الإدارة ستحرر خطابًا بغيابي ثلاثة أيام، و بعد اثني عشر يومًا ستحرر خطابًا آخر بفصلي بسبب غيابي خمسة عشر يومًا متصلة. لا يستطيع الموظف، مهما علا شأنه، أن يحصل على إجازة عارضة دونه إذن مسبق سوي يومين فقط، وبعدها يحاسب. ولكن كيف ستحاسبني الإدارة التي نقلت إليها، قبل أن يتم تسليمي العمل رسميًا بها و تحرير إقرار قيام بالعمل؟ أما إدارتي القديمة ، فقد أخليت طرفي منها رسميًا بالفعل، ثم ذلك المذبوح في حوض الاستحمام، والذي خلفته ورائي، كيف نسيته؟

عدت أقطع ذلك الذي بدا كأنه مخزن بين الأطلال و البقايا، أثير التراب حولي و أسعل، متطلعًا نحو النافذة العرضية المغطاة بقضبان الحديد المشبوك، غير أن

الضوء خلفها لم يتح لي أن أعرف الوقت بالتقريب، فهي درجة الضوء نفسها داخل المخزن.

أحسست بالعطش فلعقت شفتي لأشعر بالتراب لزجًا. ازددت عطشًا على عطش ، وكان ألم عيني المصابة ماينى يتزايد،لكنني تابعت طريقي بين الصناديق الكرتونية المتناثرة هنا و هناك، ثم وجدت ما يشبه الممر الذي كان معتمًا قليلاً، و الأهم أنه كان خاليا من التراب، كما أن تيار الهواء الذي كان واضحًا عندما دلفت إليه، بدد تقريبًا سحب الغبار التي كانت تلاحقني. وهكذا مضيت في الممر الممتد، غير أنني تذكرت فجأة حقيبتي فاستدرت راكضًا تقريبًا، و حاولت أن أكون حريصًا قدر الإمكان على عدم إثارة الغبار وعدت بها مرة أخرى إلى الممر.

عندما انتهيت من هذا الممر، لم يكن أمامي إلا أن أنحرف إلى اليمين . وبدا كأنني أسمع صوت قطرات ماء، فرفعت عيني لأجد جدارًا عاليا ينتهي بعدة نوافذ زجاجية. هل يمكن أن أكون قريبًا من الماء و أستمتع بإنهاء شئوني الصباحية أخيرًا؟ لو حدث هذا، لما تورعت عن الاستحمام و تغيير ملابسي الداخلية، ففي حقيبتي غياران داخليان نظيفان. وجدتني أركض متتبعًا صوت قطرات الماء حتي وصلت إلى باب بدا أنه دورة مياه. توقفت قليلاً أتلفت حولي، ثم اندفعت حاملاً حقيبتي.

كانت أبواب التواليتات على اليمين والمباول على اليسار، بينما يقبع حوض كبير يسع اثنين في المواجهة. دخلت إلى التواليت الثاني، ووجدته لحسن الحظ نظيفًا. أفرغت

أمعـائي جيـدًا و غسـلت نفسـي ثـم ضـغطت علـى ذراع السيفون ليتدفق الماء قويًا. خلعت ملابسي بسرعة و تركت ملابسـي الداخليـة تحـت قـدمي، بينمـا حملـت الحقيبـة، و صـعدت فـوق التواليـت واسـتطعت أن أجـد مكانًـا لهـا علـى الجدار. و عندما نزلت، اصطدمت قدمي بكوز بلاستيكي. فتحت الصنبور حتي النهاية، ورحت أملأ الكوز و أفرغه على جسمي فأشعر أن التراب ما زال لزجًا، فأعاود ملء الكوز بسرعة و أدلقه على رأسي.. هل أغني أم أصرخ أم أهتف؟ .. رحت أستمتع بالماء و أدعك جسمي ، ثم تذكرت أنني أحتفظ بصابونة و منشفة في حقيبتي. كان الماء فاترًا و منعشًا يتدفق على جسمي ويبلل وجهي.

أغلقـت الصـنبور وعـدت أتسـلق التواليـت و أخرجـت الصابونة و المنشفة و الغيار الداخلي من الحقيبة. مضيت أدعك شعري بالصابونة مستمتعًا بانسيات الرغوة المعطرة على جسمي. وجدتني أدندن أول الأمر ثم رفعت عقيرتي:

ما تزوقيني يا ماما.. أوام يا ماما...

ده عريسي هايخدني بالسلامة يا ماما

وعنـدما تبينـت أن صـوتي عـال جـدًا توقفـت منفجـرًا فـي الضحك، و تذكرت أنني سمعت هذه الأغنية منذ قليل في المؤتمر الثقافي الذي حضرت جانبًا منه. جففت جسمي بالمنشـفة و ارتـديت غيـاري الـداخلي النظيـف، و أقعيـت أغسل غياري المتسخ و أدعكه جيدًا بالصابون. وبعد أن شطفته و عصرته جيدًا، أكملت ارتداء ملابسي وبالرشاقة نفسها صعدت أعلى التواليت و اختطفت الحقيبة.

خرجت يقطر الماء من شعري أبحث عن شعاع شمس. و تذكرت أنني لم أر شمسًا منذ ثلاثة أيام. وجدتني فجأة أمام رجل ملتح يرتدي جلبابًا داكنًا كان متخذًا طريقه نحوي. كنت أحمل ملابسي المغسولة في يد، و اليد الأخرى أمسك بها الحقيبة. شعرت بالخجل حتي أنني حاولت إخفاء ملابسي المغسولة خلف ظهري. توقف الرجل أمامي وراح يحدق فيّ قبل أن أبادره أنا محاولاً الابتسام:

" سلام عليكم .."

غمغم ثم التفت خلفوه مشيرًا إلى شبح امرأة منقبة تقفل بعيدة عنه عدة خطوات و عاد يحدق في وجهي. توزعت نظراتي بين المرأة التي مضت تهرول مبتعدة بخيمتها السوداء التي أخفت جرمها، و بين الملتحي الذي كان يرتدي جلبابه الداكن الفضفاض ذا الأساور الضيقة و عمامته البيضاء المتسخة. كان بادي الغضب دون سبب فعدت أقول له:

"سلام عليكم يا مولانا... دلني على باب أخرج منه تكسب ثواب... الله يخليك يا مولانا..."

انفجر في الضحك وراح يقهقه بصوت عال، ثم رقص تقريبًا وهو يهز ذارعيه صائحًا:

"باب تخرج منه.. أنا أدلك على باب تخرج منه.. كنت دليت نفسي من اثنين وأربعين يومًا..."

ولما وجدني مستفزًا و أشحت بوجهي عنه، قال و هو يغالب ضحكه:

"اسمع..آخر الممر ستجد بابًا تخرج منه...".

وقبل أن يكمل جملته، كان ثلاثة رجال يهرولون من الممر الذي كانت المرأة المنقبة غابت فيه من قبل. تراجعت قليلاً إلى الوراء مبالغًا في إخفاء غياري الداخلي الذي يقطر منه الماء وراء ظهري. بادرني أحدهم، والذي يملك جسمًا رياضيًا على الرغم من شعره الأجعد الأبيض و لحيته النامية البيضاء قائلاً:

"أنا اللواء رياض مطاوع.. عرفنا بنفسك...".

ذكرت له اسمي فعاد يقول:

"وحضرتك ... وظيفتك يعني..".

"موظف.. موظف منقول للإدارة التعليمية هنا...".

راح يتفحصني بعينيه ثم عاود هجومه:

من ضربك على عينك؟ ما حكايتك و من أين أتيت؟.."

كان الاثنان الآخران قد اقتربا أيضًا . كان الرجل الطويل الأشقر و المرتدي بدلة بنية داكنة بكرافته يبدو أجنبيًا، بينما كان الثاني شابًا في العشرينات لحيته نامية.

رحت أجفف أصابع يدي اليمني في ملابسي فسقط غياري المغسول على الأرض . انحنيت و أخرجت لهم المظروف الذي يضم أوراقي. اختطفه الرجل ذو الجسم الرياضي وارتدي نظارته الطبية و استغرق في قراءة أوراقي، لكنني وجدت نفسي أهتف به:

"يعني سيادتك لواء.. يعني سيادتك.. لماذا نحن هنا و أين باب الخروج لو سمحت؟..."

لم أدر ماذا أقول له، وشعرت بدوار خفيف، فتوقفت عن الكلام و أغمضت عيني، و شعرت بهم يتفحصونني فواصلت إغلاق عيني.

عندما انتهي الرجل الذي قال عن نفسه إنه لواء من الأوراق، ناولني المظروف وهو يحدق في وجهي، ثم توجه إلى الملتحي قائلاً:

اثنان جاءا من الباب الخلفي... أول أمس الخواجة نيلز، و الآن جاءنا الأستاذ أيضًا من الباب نفسه...".

رفعت عيني إلى الرجل الأجنبي، وكان هو أيضًا ينظر نحوي في الوقت نفسه. كانت بدلته بنية داكنة و كرافتته ذات ألوان زاهية تقطعها خطوط ذهبية، إلا أن ياقة قميصه متسخة وقد تهدلت بدلته. بادرني قائلاً:

"هاي... مرحبًا.. أنا دكتور نيلز بارفود أستاذ أدب عربي في بنسلفانيا... حضرت هنا بناء على دعوة رسمية من عندكم لحضور ندوة رسمية..".

كان الأجنبي مستفزًا وهو يوجه كلامه للجميع وليس لي وحدي. هاجمني الدوار، وراح يقوي و يشتد، إلا أنني استطعت أن أرفع صوتي قائلاً:

"أنا تعبان.. أتمني أن يكون هذا مجرد كابوس.. لماذا أنتم جميعًا هنا؟.. أين باب الخروج؟..".

ويبدو أنني كنت على وشك السقوط، لأن الشاب- أصغرهم- قفز في اتجاهي و أسندني إلى الجدار ، ثم التفت لي قائلاً:

"تعال معي نستريح قليلاً و سأحكي لك ما جري لنا...".

وأضاف موجهًا كلامه نحو الأخرىن:

"أكيد الأستاذ تعبان جدًا.. سأعود به إلى العنبر...".

قلت أنا ، متمالكًا نفسي قليلاً و مبتعدًا عن الجدار الذي سبق أن أسندني إليه الشاب:

"العنبر؟ .. أي عنبر .. أنا أريد باب الخروج.. أين باب الخروج؟..".

في هذه اللحظة، تقدم الرجل الذي سبق أن قال عن نفسه إنه لواء:

"اسمع يا أستاذ... الشيخ مصطفي و الجماعة هنا منذ اثنين و أربعين يومًا.. ابننا كريم هنا منذ واحد و ثلاثين يومًا، و أنا منذ أربعة و عشرين يومًا، أما الدكتور نيلز فقد سبقك بيومين..".

قاطعه الخواجة في حدة:

"أضف إلى هذا أنني الوحيد الذي جئت من الباب الخلفي.. مثلك..".

"تفضل.."

و أشار بيده قبل أن يستدير. تقاطر الجميع من خلفه: الخواجة ثم أنا و كريم ووراءنا الشيخ الملتحي. كنت أحمل حقيبتي و أحاول فهم ما يجري. قبضت عليها بقوة و تأكدت من وجود مظروف أوراقي تحت إبطي و مشيت معهم. قطعت الممر، ثم وصلنا إلى باحة واسعة مضيئة، وفي الزاوية كانت هناك ستارة داكنة معلقة و تخفي شبحًا ما أظن أنه المرأة المنقبة. كانت الباحة واسعة، لكنها بدت خالية وهادئة. رحت أقترب من البوابة الداكنة التي بدت في المواجهة، و تركت حقيبتي تسقط، لأمسك بالمظروف وحده، و جعلت أصرخ و أنا أتقدم نحو البوابة:

"أنا موظف في هذا البلد و لابد أن أتسلم عملي.."

وفجأة لم أستطع أن أسيطر على نفسي، فقد اندفعت إلى البوابة أخبط بقبضتي ثم بكل جسمي، وأخيرًا برأسي.

قالت:

"مالك؟.. أنزل القفص ... قّرب مني لأساعدك..".

اقتربت منها كما قالت. نظرت في عيني مبتسمة، و جعلت ترفع عني القفص. مضت تفرغ ما فيه و تروح و تجيء أمامي و حولي تضع كل شيء في مكانه. كانت تتثني و خصرها الرهيف يلوح لي في قاعة فسيحة مزركشة ذات تراكيب و شاذورانات و مصاطب و سدلات و خزاين عليها الستور مرخيات، وفي وسط القاعة سرير من المرمر منصوب عليه ناموسية من الأطلس الأحمر. أين رأيت هذه القاعة من قبل؟

سألت نفسي متشككًا، هل تلك التي ساعدتني لتوها الآن و أنزلت عني القفص، هو التي مضيت وراءها، تشتري و تضع في القفص؟ أم هي الصبية الثانية التي دخلنا إليها بعد أن اشترينا كل شيء؟ هذه النظرة المغوية الصريحة المنطوية على ما يشبه القسوة ضاعفت من شكوكي. و عندما وضعت في يدي النقود و كأنني حمال بالفعل، بقيت واقفًا أحدق إلى وجهها فأضافت:

"لا يكفيك.. عشنا وشفنا.. حمالين آخر زمن..".

هل يمكن أن يكون هذا هو الشرك الذي طالما حذرّت منه ؟ ما الذي بين الصبية الثانية و بيني حتي تتحرش بي و تحاول إيقاعي؟ وأين ذهبت الأولي و تركتني؟ وهل

الخطوة التالية هي تورطي في مذبوح جديد أراه أمامي بعينين مفتوحتين وفي حوض استحمام، مثلما جري لي مع الأولي التي خلت أنها عزة؟

شعرت بالعرق يبللني، ووجدتني وقد داخلني خوف منها، وبدلاً من رغبتي التي كانت قد استيقظت، تراجعت للخلف، و أطلقت ساقي للريح. اصطدمت بحائط فارتج رأسي، إلا أنني مع ذلك استطعت أن ألمح الرجلين المرتديين يونيفورم ملهي القطين يقبلان في اتجاهي. نهضت مرة أخرى لأتتبع أول مصدر للضوء تبينته. كان يبدو و كأنه ممر أو دهليز أو زقاق ضيق. ولما اختفت أصوات دقات أقدام من كانوا يتبعونني، مددت يدي إلى رأسي أحاول التماسك، و تتبعت مصدر الضوء قدامي. كدت أهتف عندما اكتشفت أنه ضوء النهار الذي غاب عني منذ بضعة أيام. نعم.. كان ضوء النهار يغطيني. مددت ذارعيّ معًا وفتحتهما إلى أقصى ما أستطيع مغمضًا عيني. ها أنا قد انتهيت إلى شاطئ على جانبيه أصناف من الأشجار التي لم أكن أعرف لها أسماء، و خلفها لاحت حدائق ممتدة لا يحدها البصر. كان ضوء النهار الخفيف، ولسعة البرودة التي أحسها على جلدي، ورائحة الأشجار تختلط برائحة الياسمين.. كل هذا جعلني أقعي على ساقيّ في أول منحدر للشاطئ، وجعلت أعب من الماء بشفتي مباشرة بعد أن مددت جسمي، وإذا بالحصان قد طلع من النهر و صرخ صرخة عظيمة، ثم وثب على الفرس التي كانت ترتجف على الشاطئ متهيئة لدخولة. اعتلاها و مضيا يصهلان و يتدافعان، وعندما انتهيا بدأ هو في دفعها بجسده إلى النهر،

لكنها جعلت ترفسه بقدميها الخلفيتين و تصهل بقوة. لحظتها دخل جماعة من الرماحة صارخين فجفل منهم الحصان و اصطحب الفرس و غابا معًا في النهر مثل الجاموس. ولما سألني الرماحة عن أمري حكيت لهم ما جري منذ أجبرت على مغادرة مدينتي. قاموا و ركبوا الخيول و أخذوني معهم. سافرنا و لم نزل سائرين إلى أن وصلنا للمدينة التي فيها ملكهم الأكبر. دخل عليه الرماحة و أعلموه بقصتي فطلبني. أدخلوني إليه ووقفت بين يديه. سألني عن حالي فأخبرته بجميع ما حصل لي و بكل ما رأيته من المبتدأ إلى المنتهي. عند ذلك تعجب مما وقع لي وقال: و الله لولا طول عمرك ما نجوت من هذه الشدائد: رحلتك التي انتهت بالرخ الغاضب يحطم مركبك بالحجارة ، و رحلتك التي ألقت بك فوق جزيرة اكتشفت بعد فوات الأوان أنها ظهر حوت ضخم غلبه النوم، و رحلتك التي انتهت بك إلى حمل العجوز المقعد على كتفيك قابضًا بوركيه على رقبتك.. سبع رحلات حكيت لي عنها. أنت محظوظ.. ثم إنه أحسن إلى و أكرمني وقرّبني إليه و صار يؤانسني بالكلام و الملاطفة و جعلني عنده عاملاً على مينة البحر و كاتبًا على كل مركب عبرت إلى البر و صرت واقفًا عندها لأقضي مصالحه وهو يحسن لي، وقد كساني كسوة مليحة فاخرة،و أصبحت مقدمًا عنده في الشفاعات وقضاء مصالح الناس. ولم أزل عنده مدة طويلة، وأنا كلما أشق على جانب البحر أسأل التجار و المسافرين و البحريين عن ناحية مدينة بغداد، لعل أحدًا يخبرني عنها فأروح معه إليها و أعود إلى بلادي، إلا أن أحدًا لم يعرفها

فتحيـرت مـن هـذا و سـئمت طـول الغربـة.. أريـد أن أنام..أنام...

تعرفت على الدشمة التي بدت في الشتاء الصحراوي مثل دشمة حفر الباطن.. و لشد ما دهشت عندما وجدتني أتجه نحوها لأتخذها ساترًا لي مع زملائي. كنت قد سمعت في هذه الأيام أن الأمريكيين أبادوا فرقًا كاملة من الجيش العراقي الذي انسحب في فوضى عرضته للمزيد من الإبادة.. ولم يكن أمامي – أنا و زملائي- بعد أن طهّرنا المنطقة التي كلفونا بها إلا الانتظار وربما التمشية خارج الدشم عندما يهدأ صوت القنابل. وهكذا رحت أتمشى بالفعل متجهًا إلى الدشمة.

أين أنا الآن؟

هل أنا في حفر الباطن بالفعل؟ أم أنني أقفل منتظرًا ظهور أي مركب لأسأل التجار و المسافرين عن مدينتي بغداد دار السلام؟ أم أقعي على الشاطئ أرتشف الماء؟ أم أنني الحمال الذي سرت دهرًا وراء الجارية أحمل عنها كل ما تشتريه؟ .. لو كنت في حفر الباطن فما سبب هذا الهدوء و الفراغ الذي يحيط بكل شيء؟ بل إنني لا أري أيًا من زملائي في فصيلة كسح الألغام؟

أريد أن أنام... أنـ... نام...

استغرقت وقتًا بدا لي طويلاً حتي تعرفت عليه. حاولت القيام معتمدًا على كوعي إلا أن الدوار أجبرني على إغماض عيني و تركت نفسي أسقط مرة أخرى. لكن

الولد...آه .. اسمه كريم و أنا في المول مازلت. نعم. لست في حفر الباطن ولا في رحلة من رحلات السندباد.. أنا في المول وآخر ما أتذكره هو ما جري لي في ملهي القطين عندما حاولت تلك التي تشبه عزة أن تنبهني إلى خطر لم أتبينه لحظتها.. ها هو الولد كريم ينحني على مبتسمًا بلحيته النامية و شعره الطويل الأجعد قائلاً:

"ألف سلامة .. الحمد لله.. أنت نمت عشر ساعات .. عشر ساعات ... لابد أنك مقتول جوعًا.. احتفظت لك بطعامك..".

مد يده بطبق ورقي كان به قطعة من الجبن و شريحة من الخيار. كنت مقتولاً بالفعل من الجوع، فنهضت لألتهم ما في الطبق و أنا مضطجع ما أزال. استطعت أخيرًا أن أفرد جسمي و أستوي جالسًا وظهري للجدار. اكتشفت أن قبضتي مجروحتان و عظامي تؤلمني بشدة. كنت جالسًا على ما يشبه الفرشة على الأرض مباشرة و بجواري كريم الذي أنقذني من الموت جوعًا... قلت له:

"أنت اسمك كريم.. وكريم فعلاً..".

ضج بالضحك صائحًا:

" اليوم فقط.. غدًا عليك أن تحصل على طعامك بنفسك..".

وقبل أن أستوعب تمامًا ما قاله، وجدتهم تحلقوا حولي:

الخواجة و اللواء و من خلفهما الشيخ الملتحي.. حاولت أن أنهض واقفًا إلا أن الدوار غلبني. و سمعت صوت اللواء فرفعت عيني لأجده يقول:

"سلامتك.. على العموم معك كريم و سوف يشرح لك عندما ينشف عودك...".

وانفجر في الضحك فجأة حتي أنه لم يستطع أن يتم جملته، فيما كان الآخران يغمغمان و أنا أحاول الابتسام و الرد بغمغمة مناسبة.

عندما غاب الرجال الثلاثة، رحت أفتش بعيني... كنا جالسين فيما يشبه العنبر. و خُيِّل إلى أن طوله لا يتجاوز الأربعين مترًا، أما عرضه فلم يكن ليقل عن خمسة عشرمترًا، و ينتهي من الناحية اليمني القريبة مني ببوابة حديدية ضخمة، و أمامي مباشرة كان الجدار المواجه حيث بدت فرشتان أو ثلاثة تشبه الفرشة التي نجلس عليها الآن أنا و كريم.. تطلعت إلى السقف الذي بدا منخفضًا بينما كانت الأرض مغطاة بمربعات البلاط المتشابهة:

الطوبي والرمادي.

فجأة برق في ذهني خاطر مفاجئ: هل أنا مسجون؟ نعم...

من المؤكد أنني مسجون..ولم أستطع أن أمنع نفسي من الصياح:

"هل نحن مسجونون يا كريم؟ .. هل نحن مسجونون هنا؟.."

" المشكلة ليست هنا.. المشكلة أن نجد من يرد علينا.. أنت مرهق جدًا و كنت تهذي منذ قليل.. سنحكي على مهل .. فيما بعد..."

أضاف و هو ينهض:

"معي ثلاث سجائر...سآخذ واحدة فقط.."

ألقي لي بالسيجارتين ، ثم ربت على كتفي قبل أن يمضي مرتديًا سروالاً و قميصًا داكنين. بدا لي ولدًا طيبًا اطمأننت إليه منذ اللحظة الأولي، على الرغم من اقتضابه و انسحابه الآن. أشعلت سيجارة و شعرت بالدوار يعصف بي، و حل عطش شديد جعلني أبلع ريقي بصعوبة. لا أعرف ما إذا كان الوقت ليلاً أم نهارًا، فالضوء كان ثابتًا و ينبعث من مكان غير محدد. فكرت في أن أنهض و أذهب إلى دورة المياه، و توقعت أن تكون في هذا الاتجاه. وجدت حقيبتي بجواري فأخذت منها الشبشب و المنشفة. خطوت بصعوبة في البداية، ثم جعلت أتماسك و أثبت قدميّ في الأرض.

في آخر هذا الذي سماه اللواء رياض العنبر كان ثمة ستارة قماشية معلقة، أظنني مررت عليها بالأمس، و من فرجة بينها وبين الجدار، لمحت من بدا أنه الملتحي و امرأته، فسحبت عيني بسرعة، و انحرفت إلى اليمين في ممر يضيق فجأة لأجد دورة المياه. بعد خطوات كدت

أصطدم بالخواجة الذي برز لي و الماء يقطر من شعره ووجهه. تلكأت قليلاً فقد كانت هيئته تبعث على الضحك حقًا. كان حافيًا و مرتديًا بدلته الكاملة الرثة، وكان طويلاً جدًا حتي أنني رفعت عيني إليه حين قال:

"هاي.. من فضلك.. هل تسمح أن نلتقي و نتحدث فيما بعد... أنت... يعني حضرتك و أنا فقط جئنا من هون...".

وأشار بيده نحو الممر الآخر المفضي إلى المخزن الذي قدمت منه بالأمس، بينما واصلت أنا طريقي بعد انحناءه خفيفة، لأن مثانتي كانت تضغط عليّ. لم أستطع أن أحافظ على نفسي، ووجدتني قد بللت لباسي فتضاعف خوفي و أنا واقف أمام المبولة أتخلص على مهل مما تبقي. ثم دخلت دورة المياه و حاولت أن أركز في تفريغ أمعائي إلا أنني فشلت.لأواجه نفسي بالوضع الذي وصلت إليه. أنا في سجن. هذا مؤكد. لكن أي سجن هذا؟ وهل هذا هو نظام السجون؟ إنني لم أر شرطيًا وأحدًا منذ حللت. إذن هل من الممكن أن يكون سبب دخولي السجن هو عدم دفعي للحساب؟ غير أن الرجل ذا اليونيفورم سألني في الليلة الماضية: أين تغيبت و مع من هربت؟.

وهؤلاء المسجونون مثلي: الشيخ الملتحي وامرأته التي لمحت شبحها قاعدة بجواره خلف الستار، و كريم، واللواء رياض، و الخواجة الذي تركته منذ لحظات و يتحدث العربية بكل هذه الطلاقة كأنه سوري أو لبناني.. قال لي: حضرتك و أنا فقط جئنا من هون..و أشار بيده إلى

المخزن.. ما حكايتهم؟ و لكن على أن أتذكر أن ما قاله الخواجة معناه أن هناك بابين... باب المخزن، و البوابة المعدنية الكبيرة في العنبر.. و ما أهمية هذا؟.. لا فائدة.

أنا الآن معرض للفصل دون إنذار، وليست هناك جهة ما أتبع لها حتي تسند لها مسئولية إرسال الإنذار. أظن أنني في اليوم الرابع و ربما الخامس، فلم أعد قادرًا على التمييز بين الأيام..

وهكذا اضطررت لمغادرة المرحاض وقد تقلصت أمعائي مع شعوري بحرقان شديد. وجدت بقايا صابونة على الحوض، ففتحت الصنبور على آخره و اندفعت أدعك شعري ورقبتي بالصابون. كنت محتاجًا للصابون فعلاً فقد كان شعري ووجهي لزجين، بل كل جسمي لزجًا مرضوضًا. فكرت في أن أستحم، غير أنني تراجعت بسرعة، فأنا لم أفهم شيئًا بعد، و لا أعرف إذا كنت سأجد كريم عندما أعود، و اللواء رياض، و الشيخ مصطفي، و المرأة المنقبة التي لمحتها عبر فرجة الستارة الداكنة في نهاية العنبر...

هل سأجد أحدًا منهم عندما أعود؟

قال كريم : هل تعلم أنك الوحيد الذي اعترف بوضوح أنه كان في ملهي القطين قبل إلقائه في العنبر؟ الشيخ مصطفي مثلاً أقدمنا، يقول إنه وافق بعد إلحاح امرأته على اصطحابها للمول، و تركها أمام محل نور الهداية و ذهب إلى المسجد- في المول نفسه- لأداء صلاة الجمعة، وعندما عاد قبضوا عليهما، و مع ذلك فهو يتذكر بوضوح أنه كان بجوار ملهي القطين لحظة إلقاء القبض عليه و على امرأته، أما اللواء رياض فينفي بدوره أية علاقة له بالملهي، و كل ما في الأمر – كما حكي لنا- أنه كان على موعد مع أصحاب الشاليه الذي جاء خصيصًا لشرائه من أجل الاتفاق على التفاصيل، و أنه توقف ليسأل أحد الحراس الواقفين على باب ملهي القطين عن كوفي شوب سلسبيل الذي كان مفترضًا أن يقابل فيه أصحاب الشاليه، فأمسكوا به هناك... و المدهش أن الدكتور نيلز بارفود يصر على أنه كان يستكمل كتابًا عن الثقافة الشعبية، و أنه انتهز فرصة وجوده في المول لحضور مؤتمر و راح يتجول في أرجائه فأمسكوا به.

وأخيرًا.. لعلك تريد أن تعرف كيف أمسكوا بي؟

أمسكوا بي بجوار ملهي القطين أيضًا، لكنهم كانوا يتابعونني، كما شعرت بذلك، منذ دخلت المول قبل ثلاثة و ثلاثين يومًا. أرجو أن يكون ما أقوله لك سرًا بيننا فقط. أنت الوحيد الذي أثق فيه داخل هذا السجن، وسوف أكشف

لـك عـن كـل شـيء. لا أعـرف لمـاذا وثقـت بـك إلـى هـذا الحد؟ .. هل لأنك صارحتني بكل شيء.. عن عزة مطلقتك و الليلـة التـي قضـيتها معهـا فـي الخـارج، و اضـطرارك للعودة من أجل الحقيبة التي تضم أوراقك، ثم رجلي الملهي اللذين اقتاداك في آخر الليل.

أكرر لك.. هذا الكلام سر بيننا فقط...

كـان لـدي موعـد لاسـتلام المنشـورات التـي كنـا ننـوي توزيعها في اليوم التالي في الكلية للتضـامن مـع الانتفاضـة الفلسطينية بعد اجتياح الدبابات الإسرائيلية لمخيم جنين. لا أعـرف ... هـل تـأخرت علـى زميلـي الـذي واعـدني علـى اللقـاء بجـور ملهـي القطـين، أم أنـه جـاء قبلـي و لـم ينتظرني ... المهم أنهم باغتوني، وقبل أن أفيق من لكماتهم وركلاتهم، وجدت نفسي في هذا العنبر الذي نجلس فيه الآن.

وهكذا كما تري فإن ملهي القطين عامل مشترك بين الجميع ، و المؤكد أن بقايا الطعام و السجائر التي يدخلونها إلينا كل يوم هي من بقايا ملهي القطين... سوف تشم رائحة لخمر في شرائح الخضار و الطماطم من ملهي القطين. وربما تسمع أحيانًا موسيقى بعيدة أو ما يشبه الصراخ من رجال و نساء من ملهي القطين أيضًا...

ستسألني طبعًا عن أولئك الذين يدخلون إلينا بقايا الطعام.

نحن لا نراهم مطلقًا. وأنت بنفسك خبطت البوابة بيديك وقدميك ورأسك دون فائدة، وهو ما جري للجميع بشكل أو بآخر. أنا أعرف السجن يا يوسف.. وهذا سر آخر بيننا و أرجو ألا يعرفه سوانا. سُجنت في العام الماضي بسبب المظاهرات، و قضيت أكثر من خمسة شهور، و مع ذلك كان هناك سجن حقيقي وأمن و نيابة نذهب إليها للتحقيق و محكمة تحاكمنا و تفرج عنا تباعًا.

بيني و بينك فقط أنا لا أخاف هنا إلا من هذا الذي اسمه رياض... نعم اللواء رياض. هو الوحيد الذي لا أستريح له منذ رأيت وجهه الذي يشبه القناع، فهو عندما يكون في أقصى حالات هياجه و غضبه، يمكنه ببساطة أن يبدي لك وجهاً آخر مبتسمًا وودودًا. هل تصدقني لو قلت لك إنني لا أصدق أنه لواء أصلاً.؟

عمت حتي كلت سواعدي و تعبت أكتافي و صرت في الهلكات ثم تشهدت و أيقنت بالموت وهاج البحر من كثرة الرياح فجاءت موجة كالقلعة العظيمة فحملتني و قذفتني قذفة صرت بها فوق البر لما يريد الله فطلعت البر وعصرت ثيابي و نشفتها على الأرض و بت فلما أصبحت لبست ثيابي وقمت أنظر أين أمشي فوجدت غوطة فاتجهت نحوها ودرت حولها فوجدت الموضع الذي أنا فيه جزيرة صغيرة و البحر محيط بها فقلت في نفسي كلما أخلص من قضية أقع في أعظم منها و بينما أن متفكر في أمري إذ نظرت مركباً فيها ناس فقمت و طلعت على شجرة و إذا بالمركب التصقت بالأرض و طلع منها عشرة عبيد مشوا حتي وصلوا إلى وسط الجزيرة و حفروا في الأرض و كشفوا عن طابق رفعوه و فتحوا بابه ثم عادوا إلى المركب و نقلوا منها خبزًا و دقيقًا و سمنًا و عسلاً و أغنامًا و جميع ما يحتاج إليه الساكن و صار العبيد مترددين بين المركب و باب الطابق وهم يحولون من المركب و ينزلوه في الطابق إلى أن نقلوا جميع ما في المركب ثم بعد ذلك طبع العبيد و معهم ثياب أحسن ما يكون وفي وسطهم شيخ هرم كبير وقد عمر طويلاً و أضعفه الدهر حتي صار فانياً و يد ذلك الشيخ في يد صبي أفرغ في قالب من الجمال و ألبس حلة الكمال فلم يزالوا سائرين إلى أن أتوا إلى الطابق و نزلوا فيه و غابوا عن عيني فلما مضوا قمت و نزلت من فوق الشجرة و مشيت إلى موضع الردم و نبشت التراب و صبّرت نفسي حتي أزلته فانكشف الطابق فإذا هو خشب

مقدار حجر الطاحون فرفعته فبان تحته سلم معقود من الحجر فتعجبت من ذلك و نزلت في السلم حتي انتهيت إلى آخره فوجدت شيئًا نظيفاً ووجدت بستاناً وثانياً و ثالثاً إلى تمام تسعة و ثلاثين و كل بستان أري فيه ما يكل عن الوصف من أشجار و أنهار و أثمار و ذخائر ورأيت باباً فقلت في نفسي ما الذي في هذا المكان فلابد أن أفتحه و أنظر ما فيه ثم فتحته فوجدت فيه فرساً مسرجاً ملجماً مربوطاً ففككته وركبته و طار بي إلى أن حطني على هذا السطح فوجدت عشرة شباب عور فلما رأوني قالوا لا مرحباً بك فقلت لهم أتقبلوني عندكم قالوا و الله لا تجلس عندنا فخرجت من عندهم حزين القلب باكي العين و كتب الله لي السلامة حتي وصلت إلى بغداد فحلقت ذقني و صرت صعلوكاً .

عندما فتحت عيني، اصطدمت بالبوابة الزيتية الداكنة أمامي و أنا مضطجع على فرشتي. كانت مغلقة و أمامها الصندوق الكرتوني، فأدركت أن فرصتي في مواجهة من يسجنونني اليوم فاتت أيضًا. طار النوم تمامًا من عيني، ومددت يدي إلى ذقني متذكراً ما جري لي منذ لحظات، عندما وصلت إلى بغداد فحلقت ذقني وصرت صعلوكاً . و تذكرت أيضًا أن معي في حقيبتي نسخة من ألف ليلة وعدت كريم بإعارتها له، لما حكيت له كيف أجبرت على شراء نظارة بحر الأطفال و أخرجتها له ليتفرج عليها . حكيت له كل شيء تقريبًا و فتحت قلبي في الليلة الماضية. سهرنا وقتاً طويلاً على الرغم من أن اللواء رياض كان لا يكف عن القيام من فرشته بين الحين و الآخر مفتعلاً أي

كلام يقوله لأحدنا ثم لا ينتظر إجابته. وكنت فوجئت به و أنا عائد من دورة المياه ينتحي بي جانبًا يسألني عما قاله الخواجة نيلز، فقد لمحه وهو يتحين الفرصة لينفرد بي. فأجتبه بأن الخواجة كان يؤكد لي فقط أنه جاء مثلي من الباب الخلفي للمخزن. قال وهو يخفض صوته إلى ما يشبه الهمس أن آخذ حذري منه و أنه يشتم من القصة التي رواها الخواجة عن كيف أمسكوا به، رائحة تهريب آثار. فبحكم خبرته السابقة كضابط خدم أكثر من أربعين عامًا، أكد لي أنهم في ملهي القطين يشتغلون في كل شيء، أي إن أصابع مافيا الآثار وراء سجن الخواجة معنا.

أخشي ما أخشاه أن أصاب بالجنون حقيقة لا مجازًا. لم يكن هناك من أطمئن إليه سوي كريم، وهو الذي كنت أفضي له بمخاوفي من هذا الجنون الذي يحاصرني. لم أعد أتذكر بالضبط كم يومًا مضي على غيابي عن استلام عملي، بل إنني لم أعد مهتمًا بعدد هذه الأيام، و الكارثة التي أتعرض لها أفدح .. وعزة.. أو تلك التي تشبهها.. و ملهي القطين ... و الرجل المذبوح و السجن الذي وجدتني قابعًا بين جدرانه.

كنت قد سحبت فرشتي ووضعتها في مواجهة البوابة مباشرة قبل أن يغلبني النوم لأستيقظ بمجرد فتحهم و إدخال طعام اليوم، غير أن النوم غلبني لليوم الثالث على التوالي منذ وصولي.. الحل فيما يبدو أن أكف عن قراءة ألف ليلة التي عدت إليها أقطع الوقت.. من بين خططي أن أواجه السجانين، فأنا لم أرتكب جريمة و كل ما في الأمر أن

هناك حسابًا في ملهي القطين سأدفعه كاملاً، وعلى إبلاغهم أنني مستعد لدفع كل ما يطلبونه.

لا أعرف ما هو الحل لأتمكن من الاستيقاظ عندما يدخلون الصندوق الكرتوني الجديد، و يأخذون القديم بنفايات اليوم السابق.

و لا أعلم- في الحقيقة- ما إذا كانون سيصغون لي أو لأوراقي و يسمحون لي بالخروج.

ما كنت متأكدًا منه، كما حكيت لكريم، إنني لست مذنبًا و لا علاقة لي بكل هذا . الشيخ مصطفي مثلاً لم يكذب علينا في كيف أمسكوا به هو و امرأته ومع ذلك فإن لسانه أفلت ببضع كلمات، و هو يحكي لي بالأمس عن استدعائه من المباحث ليتوقف عن أداء خطبة الجمعة في الجامع الكبير، و امتثل لطلبهم و توقف بالفعل منذ عامين... هناك إذن أسباب فيما يبدو للإمساك بالناس هنا، حتي مع الأخذ في الاعتبار أن ملهي القطين ليس الشرطة بالتأكيد وهي الجهة الوحيدة المنوط بها حبس الناس.

لم أكن قد أخفيت شيئًا عن كريم سوي حكاية الرجل المذبوح في حوض الاستحمام عندما حكيت له ما جري لي. و إذا كان قد تعرض من قبل للسجن فإن هناك سببًا واضحًا و محددًا هو اشتراكه في المظاهرات ، و إن كنت أنا نفسي اشتركت في إحدي المظاهرات، أثناء تعرض شعب العراق للغزو الأمريكي عندما مررت على الميدان الرئيسي بالمصادفة ووجدت المظاهرة قائمة بالفعل و الناس يهتفون. لكن كريم – كما حكي- ضُبط ومعه

منشورات فحبسوه مرتين. في المرة الأولي قضي أسبوعًا فقط، إلا أن المرة الثانية طالت و استمرت خمسة شهور. قال لي: أنا أعرف السجن. هذا ليس سجنًا. لقد قبضوا على من أمام ملهي القطين و ليس من داخله. وهؤلاء الذين اعتقلوني لا تختلف هيئتهم عن هيئة الأخرىن الذين سبق لهم أن اعتقلوني من قبل، لكن السجن مع ذلك أمر مختلف. السجن على الأقل تشعر فيه بالأمان بعد أن تعرض على النيابة أو تذهب للمحكمة و تقف في القفص، على الأقل هذا ما حدث معي في الاعتقال الثاني.

أما اللواء رياض، فكان يحاول الانفراد بي و جرجرتي للكلام معه، أعاد مثلاً حكاية الإمساك به، والتي كنت قد سمعتها من كريم. قال إنه كان على موعد مع أصحاب الشاليه الذي جاء إلي المدينة خصيصًا لشرائه، ولم يكن باقيًا إلا مناقشة بعض التفاصيل مع المالكين. و عندما توقف ليسأل أحد الحراس الواقفين على باب ملهي القطين عن "كوفي شوب سلسبيل" الذي اتفق مع المُلاك على اللقاء به، فوجئ بأغراب يضربونه و يلقون القبض عليه. لم تنطل هذه الحكاية عليّ، كما لم تنطل على كريم من قبل. و كنت – مثل كريم- لا أستريح له و آخذ حذري من انفراده بي.

في الليلة الماضية فقط، اتفقنا – كريم و أنا- على الهرب.

ليس أمامنا إلا الهرب، و تحينت الفرصة بالفعل لأعاين وحدي المخزن الخلفي، فهو متعدد الأبواب و النوافذ، و بعيد- في الوقت نفسه- عن أعين اللواء رياض. إنه الوحيد

الذي نخشاه، فالدكتور نيلز بارفود يبدو أبله على نحو ما، لا يكف عن إعادة الكلمات نفسها كلما التقاني: أنا جئت مثلك من الباب الخلفي، و يضيف إنه يريد أن يتحدث معي، لكن اللواء لم يمكننا من الانفراد. بقي الشيخ مصطفي ، إلا أنه مشغول بامرأته على الدوام: يصحبها إلى دورة المياه و ينتظر ليصحبها عائدًا بها ، و يحضر لها نصيبها من الطعام، و يحرسها خلف الستار الذي علقه في ركن العنبر.

قلت لكريم إنني أميل إلى تنفيذ هروبنا بأسرع ما يمكن، فنحن لم نرتكب جريمة.. انفجر في الضحك قائلاً:

"تعرف .. لو نري عسكري واحدًا... عسكري بوليس واحدًا كنت اطمأننت .. لا أطلب أن أري نيابة أو محكمة .. مجرد عسكري واحد..".

على الرغم من أنا قضينا معًا ثلاثة أيام فقط، وربما أربعة، إلا أنها كانت كافية ليقترب كل منا من الآخر كل هذا الاقتراب.

قلت له إنني اهتممت بمثل هذه القضايا الوطنية لتي يهتم بها عندما كنت طالباً ما أزال، بل و انضممت لجماعة يسارية فترة من الوقت تتبع ما يسمي بالأممية، و كان ما أعجبني فيها أنها تؤيد الشيوعية في الوقت الذي سقط فيه الاتحاد السوفيتي و النظم الشيوعية الأخرى. تقطعت صلاتي بزملائي و دخلت الجيش لأؤدي الخدمة ، و

سافرت إلى حفر الباطن عام ١٩٩١ الذي لن أنساه عريف مؤهلات عليا في فصيلة كسح الألغام. حضرت حرب الخليج في السعودية، و بعد أن أنهيت خدمتي كافأوني بالتعيين في الإدارة التعليمية القريبة من بيتي، إلا أنني حصلت على إجازة بدون مرتب، لما استجاب خالي المستشار بالإمارات لإلحاح أمي، ووفر لي عقد عمل هناك.

ولما وصلتني برقية مرض أمي و أنا في الغربة، أنهيت عقدي في الإمارات وعدت على الفور. و ما لبثت أمي أن ماتت ولم أتمكن إلا من تشييع جنازتها في اليوم الذي وصلت فيه من السفر. في هذه الفترة زاد ترددي على المسجد القريب من بيتي و تعرفت على عدد من الإخوة، وهو تقريبًا الشيء نفسه الذي جري لي بعد عودتي من حفر الباطن، ورأيت بعيني زميلين لي انفجر فيهما لغم و تناثر لحمهما و دمهما و شعرت به على وجهي بل و على شفتي. لا أستطيع أن أنسي هذا مطلقًا. لم يستمر ترددي على المسجد، و تزوجت بعد قصة حب سريع. انفصلنا للأسف – فما زلت أحبها- لكنني أجبرت تقريبًا على هذا الانفصال. هل تعرف أن هذه هي المرة الأولي في حياتي التي أدخل فيها مول؟ حتي في الإمارات لم أدخله، و كنت أطلب من زملائي و أصدقائي أن يشتروا لي معهم ما تكون أمي قد أوصتني به من هدايا للجيران و الأقارب، فالمرة الوحيدة التي شاهدت فيها المول هناك، وقفت على أبوابه الخارجية مشدوهًا من كل هذه الثريات و الفوضي

والألوان و الجنسيات، و انقلبت عائدًا و عازمًا على ألا أكررها، حتي تورطت و دخلت هذا المول.

ضحك كريم وقال لي إنه لم يعش كل هذه الأحداث المتلاحقة، فهو ثالث أشقائه لأب يعمل سائقًا في السكك الحديدية، و مازال طالبًا في السنة الأخيرة في كلية الهندسة قسم ميكانيكا. ارتبط منذ عامين بجماعة صغيرة في الجامعة. ينظمون المظاهرات و المسيرات و يعلقون مجلات الحائط ضد الحكومة التي لا تكتفي بدهس الفقراء فقط ، بل وتخضع تمامًا لإملاءات أمريكا و إسرائيل. اكتشفنا معًا في اللحظة نفسها أن صوته قد ارتفع من الحماس الذي طالما جربته أنا عندما كنت طالبًا مثله منذ أكثر من عقد من السنين، وكنا ضد الحكومة للأسباب نفسها تقريبًا. أضاف كريم بعد أن تلفت حوله: نحن جماعة صغيرة لكننا مؤثرون ولنا خط سياسي واضح. كانت لهجته جادة أكثر من اللازم، و أنا تعبت جدًا من كثرة الأسرار التي على الاحتفاظ بها على مدي الأيام القليلة الماضية.

الأكثر جنونًا من كل هذا هو السجن الذي وجدت نفسي فيه. لا أعرف، هل له علاقة بالرجل المذبوح في حوض الاستحمام؟ أنا في الحقيقة لم أقتله، والشقة التي وجدت نفسي نائمًا فيها لم أكن قد رأيتها من قبل، حتي عزة – إذا كانت هي عزة حقًا- وجدتها نائمة إلى جواري عندما استيقظت، فمن الذي ذبح الرجل في حوض الاستحمام؟

لكنني لم أجد عزة عندما عدت من الحمام بعد اكتشافي للرجل المذبوح في حوض الاستحمام.

الآن ليس أمامي سوي الهرب. و إذا كان الشيخ مصطفي و امرأته قضيا حتي الآن تسعة وأربعين يومًا من الحبس دون سبب يستوجب ذلك ، فعلى أن أجازف بالهروب من هذا الكابوس على الفور.

لففت غياري الداخلي وبقايا صابونة مما يأتينا في الصندوق نفسه الذي يضعون لنا فيه بقايا الأكل، واتخذت طريقي نحو الحمام، فقد كان هذا تقريبًا هو الوقت الذي تكون فيه زوجة الشيخ مصطفي انتهت من دخولها الحمام، فهي أول من يستيقظ مع زوجها، و يمر وقت طويل قبل أن يصحو الباقون. و عندما اقتربت من ركنهما، لمحت من فرجة الستارة امرأة الشيخ مصطفي لثوان قليلة. رأيتها للمرة الأولي بلا خيمة. كانت مستندة للجدار متخففة من ملابسها تسرّح شعرها. بدت لي شابة بالنسبة له، و ضبطت نفسي أتباطأ و أنا في طريقي للحمام، متلصصًا بعيني خوفًا من أن يفاجئني الشيخ مصطفي الذي لم يكن موجودًا كالعادة يحرس خيمته. أما المرأة فقد راح إحساسي بأنها شابة يتأكد بل و جميلة القوام تسرح شعرها بعناية و ذراعها العارية تتلألأ على البعد.

وعندما سمعت صوت أقدام آتية من ناحية الحمام، تحولت بسرعة بعد أن خُيّل لي أن عيوننا التقت للحظة قصيرة، قبل أن أدلف إلى الممر المؤدي إلى الحمام، حيث استوقفني الشيخ مصطفي قائلاً:

"أهلاً و سهلاً بالأستاذ.. هل وراءك موعد مهم أم أنك لا تريد أن تتأخر عن شغلك؟!...".

ابتسمت رغمًا عني وأجبته:

"صباح الخير يا مولانا.. الحقيقة أنني لا أحمل ساعة... كم الآن؟..".

تعمدت رفع صوتي لتسمعني امرأته و تسد على الأقل فرجة الستارة التي تكشفها وهي تسرح شعرها. قال الشيخ مصطفي:

"الساعة السابعة إلا الربع من اليوم التاسع و الأربعين . اللهم ألهمنا الصبر.. اللهم ألهمنا الصبر..".

"آمين يا رب العالمين..:".

قاطعني:

"اسمع يا جدع أنت .. لماذا لا تصلي.. هه.. أنت في محنة و عليك اللجوء لله ليجد لنا مخرجًا..".

حاضر يا مولانا.. ربنا يسهل.. دعواتك...".

و تركته متخذًا طريقي إلى الحمام، و تذكرت أولئك الأخوة الذين كنت قد تعرفت إليهم في المسجد القريب من بيتي، بعد أن رحلت أمي مباشرة. لم يكن هناك أقسي من موت أمي .عكفت على الصلاة و الابتعاد عن الناس، لكن الأخوة بعد أن وقفوا بجانبي و تماسكت قليلاً، تحولوا إلى الكلام في السياسة، و هو ما لم أكن مهتمًا به في الحقيقة.

وقفت بالقرب من الباب الخارجي، و جعلت أفتش حولي بعيني مصيخًا السمع قبل أن أمضي إلى المخزن. كان ما يزال على حاله يملؤه الغبار و المانيكانات و الصناديق و بقايا المعادن والبلاستيك. هدفي واضح هذه المرة . رسمته في خيالي قبل أن أجيء . على أولاً أن أحصي النوافذ والأبواب الجانبية، وأعاين ما أستطيع أن أعاينه منها هذه المرة، حتي اهتدي إلى أقلها إحكامًا.

على الجدار المواجه تقاطرت أربع نوافذ عرضية متساوية الأحجام: متران في أقل من المتر، و تغطيها القضبان، ومع ذلك اقتربت من كل واحدة منها، وتطلعت جيدًا و أنا أسترق السمع لأي صوت يأتي من ناحية الحمام. على الرغم من الغبار الذي أثيره أينما خطوت، إلا أنني عاينت النوافذ الأربع جميعًا، واكتشفت أن الرابعة فقط قضبانها غير كاملة، فقد كان هناك ثلاثة فقط، بينما كل نافذة تغطيها خمسة قضبان.

فكرت بسرعة، منتبهًا لأي صوت يأتي من ناحية الحمام. قررت أن أنقل أي عدد من الصناديق التي يمكن الاطمئنان لها، و أحاول الصعود عليها لتلمس هذه النافذة الناقصة القضبان بأصابعي. غير أن الصناديق لم تكن متساوية، بل و كان أغلبها فارغًا، و الغبار يثور و ينعقد عندما أحرك أي صندوق من مكانه. كنت أصطدم بأعضاء المانيكانات و القطع المعدنية و البقايا المتناثرة حتي وقعت عيناي على بالة ضخمة مدكوكة جيدًا، وبدا لي أن ارتفاعها مناسب و المشكلة تكمن في زحزحتها هذه الخطوات القليلة. نقلت أولاً كل ما يقف في طريقي و أبعدته قدر الإمكان، و توقفت لأستقبل نوبة السعال وسط كل هذا الغبار الذي أثرته.

كانت البالة أكثر ثقلاً مما تصورت، وكان ينبغي زحزحتها برفق حتي لا تثير غبارًا أكثر. قلت لنفسي إن الخطوة التالية لاكتشافي أضعف نافذة، أن نتفق أنا و كريم على الوقت المناسب لهروبنا . الغريب إننا لم نتحدث في هذا، و

تركناه لحين التوصل إلى المكان الذي سنهرب منه. اتفقنا على أنه لا خوف إلا من اللواء رياض، فهو الأكثر يقظة و مثابرة على مراقبة كل واحد، و الأكثر حرصًا أيضًا على التواجد إذا اجتمع اثنان، و كثيرًا ما أبدي لنا – أنا و كريم- امتعاضه و ضيقه من الوقت الطويل الذي نمضيه معًا. و لذلك فكرنا بالفعل، و خصوصًا بعد اتفاقنا على الهرب، أن نقلل من وجودنا معًا، و نحرص على التفاهم عندما يكون غائبًا في الحمام. لو تمكنا من الانفراد بحقيبته التي يحافظ على اصطحابها حتي حين يذهب إلى الحمام، فربما عثرنا على ما يؤيد شكوكنا أو ينفيها أو ينير لنا الطريق....

إذا كان ما يفصل بين سجن الشيخ مصطفي و اللواء رياض ١٨ يومًا، و ما بين اللواء و كريم سبعة أيام، فإن ما يفصل بيني و بين الخواجة بارفود يومان فقط، كما إنه الوحيد الذي جاء مثلي من الباب الخلفي. كيف لم أنتبه إلى مثل هذه الملابسات من قبل؟ فهمت الآن فقط لماذا حرص بارفود على الانفراد بي، فهناك ما يربط بيني و بينه، وهو ما يتعين على اكتشافه، و أتحين الفرصة للانفراد به. لكن ما لم أفهمه في الحقيقة هو ما قاله لي اللواء رياض. قال لي إن على أن آخذ حذري من بارفود، و تلميحه لي بأن له علاقة بتهريب الآثار. وومض في ذهني بسرعة أنه من الممكن أن نكون أنا و بارفود الوحيدين اللذين حضرا أيضًا تلك الندوة أو المؤتمر عن الفولكلور والتغير الثقافي في الريف المصري. ألم يقل إنه جاء بناءً على دعوة رسمية لحضور ندوة أو شيئًا من هذا القبيل؟ الأرجح إذن أننا حضرنا الندوة نفسها، وهو ما يتعين على أن أسأله فيه. و

إذا كان ذلك كذلك فإن الروابط بيننا تزداد.لكنني لم أدع إلى هذه الندوة، وكل ما في الأمر أنني صادفتها في طريقي، و أنا أتجول باحثًا عن ملهي القطين لأعود بحقيبتي ، فعن أي الروابط أتكلم؟

كانت البالة أثقل مما تصورت، ولم يبق أمامي سوي خطوات قليلة جدًا لأصل بها إلى أسفل النافذة. هل أكتفي بهذا القدر و أواصل في وقت آخر، و أعود إلى الحمام قبل أن يصحو أحدهم و يراني أزحزح البالة أو أتفحص النافذة؟ لا خوف من الشيخ مصطفي و امرأته، فقد أنهيا استخدامهما للحمام، و لن يبرح الشيخ مكانه أمام الستارة مسندًا ظهره إلى الجدار يحرس امرأته. الخوف فقط هو من ذلك اللواء الذي لا نعرف ما إذا كان لواءً أولصًا أو حتي جاسوسًا علينا من ملهي القطين كما ألمح بذلك كريم لي. أما بارفود الذي يتحدث العربية بلكنة شامية واضحة، فلا خوف منه لأنه يخاف الجميع، بل ولاحظت ذعره من اللواء عندما يفاجئنا و نحن نتحدث.

غمرني العرق و الغبار، و تذكرت يومي الأول في هذا اسجن عندما اندفعت أراقص المانيكانات و أصفر بفمي و أخبط بيدي على أجسامهن الوردية الباردة و أداعب خصورهن و مؤجراتهن، غير أنني نجحت في النهاية في زحزحة البالة، وها هي الآن تحت النافذة. قفزت فوقها، ومددت يدي أتحسس القضبان الباقية و الفراغات بينهما.

وشد ما أبهجني أن أحد القضبان تحرك في يدي و بدا ليناً، فجعلت أحاول ثنيه أو زحزحته، لكنني سمعت صوتًا يأتي من ناحية الحمام، فجريت مسرعًا و قطعت المسافة من المخزن إلى الممر ركضًا، ثم انحرفت متلصصًا إلى الحمام. لحسن الحظ أنني وصلت في الوقت المناسب وقبل وصول صاحب الصوت، و دخلت في أول توالیت صادفني و أغلقت الباب.

مـا أفسـد خططـي و قلبهـا رأسـا علـى عقـب اختفـاء البروفيسور بارفود.

كانت عادته، على مدي الأيام الستة التي قضيتها معه، ألا يذهب إلى الحمام قبل أن يصحو الجميع و يبدءون في ممارسة يومهم باقتسام الطعام، وهي المهمة التي يتولاها غالبا الشيخ مصطفي، فهو أول من يصحو، وكثيرًا ما كنا نستيقظ ، فنجده قام بالفعل بمهمته، ولم يكن أحد يجرؤ على سؤاله عن حجم الأنصبة المختلفة و خصوصا من السجائر. أخبرني كريم أنه يأخذ نصيب امرأته من السجائر، على الرغم من أن أحدًا لم يكن يملك التأكد مما إذا كانت تدخن بالفعل. و لذلك حاولت اختلاس ما تيسر و اقتسماه فيما بعد مع كريم في المرتين اللتين استيقظت فيهما مبكرا لأري يعيني هؤلاء الأوغاد الذي يدخلون إلينا صندوق الطعام. في المرة الأولي كنت مستعدا وممسكا بالمظروف الذي يضم أوراقي لأرفعه في وجوههم، و في لحظة واحدة كنت قد اندفعت نحو الباب، لكنني تعثرت قبل أن أصل، و عندما تمكنت من النهوض، كانوا قد أنهوا ما جاءوا من أجله و استبدلوا صندوق الطعام بصندوق النفايات قبل أن أتبين ملامحهم. وفي المرة الثانية اكتفيت بمراقبة أيديهم التي امتدت في الضوء الخيف ووضعت الصندوق و سحبت الآخر في أقل من لحظة.

ماذا كنت أقول؟

نعم...

اختفي البروفيسور بارفود صباح اليوم..

كان في أيامه الأخيرة كثير السرحان، يطيل جلوسه على فرشته بعد أن يستيقظ. كان ينأي بنفسه عن الجميع، حتي أنني عندما حسمت ترددي و أخبرته أنني شاهدت ندوة الفولكلور و التغير الثقافي في المول، و أضفت متسائلاً إذا كانت دعوته لمصر للاشتراك في هذه الندوة.. لم يرد.. البروفيسور الذي كان يتحرق شوقا للانفراد بي، اكتفي فقط بابتسامة شبه بلهاء بعد أن أمسي قميصه بالغ القذارة، وزاده كآبة لحيته النامية و عيناه الزرقاوان الغائرتان.

كنت أنا أول من لاحظ طول المدة التي يقضيها غائبا في الحمام بسبب اهتمامي بالمخزن المجاور له بالطبع، حيث كنت أتحين الفرص لمعاينة الأبواب و النوافذ، و اكتشفت أنه يطيل مكوثه هناك، وما ضاعف من ريبتي أنه لم يكن يستحم أو حتي يغسل ملابسه الداخلية، لذلك باتت رائحته لا تطاق.

أما أول من تنبه إلى اختفائه تمامًا فهو اللواء رياض. مر كالعادة على الشيخ مصطفي في الصباح ليأخذ نصيبه من الطعام، و كان هو الأخير عادة بسبب طابور الرياضة الذي يحرص عليه و يعقبه بحمامه اليومي، فلاحظ أن هناك نصيبين من الطعام لا نصيبا وأحدًا، فسأل عمن لم يستلم طعامه، واكتشفنا أنه البروفيسور، فقلت إنني أعرف

مكانـه، و تـركتهم لأناديـه مـن الحمـام، غيـر أننـي لـم أجده.. وقفت أنادي : يا بروفيسور.. يا خواجة.. لكنه لم يرد...

فتشنا العنبر شبراً شبراً، و فتحت أبـواب التواليتـات السـتة. لم يصدق اللـواء أننـي لا أعـرف مكانـه. قـال لـي: أنـت قلـت إنك تعرف مكانه يـا أسـتاذ .. الجميـع سـمعوك و أنـت تقـول إنك تعرف مكانه.. ما الذي غيّر رأيك؟...

تدخل كريم لصـالحي بـالطبع، وقـال إنـه لاحـظ أيضًـا غيـاب البروفيسور المتكرر في الحمام وقضاءه فترات طويلة، بـل إنه كان على وشك اقتراح البحث عنه في الحمـام قبلـي. أمـا الشيخ مصطفي فقد أصيب بحالة من الهياج و رفـع عقيرتـه بالصياح:

أمريكـا تتـدخل لحمايـة جواسيسـها بينمـا المسـلمون فـي الأغلال.. و ما لبث أن راح يقطع العنبر صائحاً:

الله أكبـر.. الله أكبـر.. الله أقـوي مـن الظلـم .. الله أقـوي مـن البهتان...

كان هياجـه يـزداد و العـرق يتفصـد مـن وجهـه المحمـر، ثـم فقـد السـيطرة علـى نفسـه و الزبـد يخـرج مـن زوايـا فمـه منحدراً إلى لحيته و مضي يصرخ:

الله أكبر على الظلم و البهتان...

جعل يهتف كيفما اتفق وهو واقف أمام البوابة:

تفرجون عن الأمريكي و تحبسون المسلمين يا كفرة يا زبالة الحكام.. سيحررنا الله يا ظلمة يا زبالة الحكام يا أذناب أمريكا و عبيدها...

حتي هذه اللحظة لم أستوعب ماذا يعني قوله إن البورفيسور أفرج عنه. إنه لم يختف إذن، بل أفرج عنه. و كيف أفرجوا عنه و هو بيننا؟ هل دخلوا أثناء نومنا و اختطفوه دون أن نشعر؟ أم إنهم تمكنوا من تهريبه عبر المخزن؟ كيف لم أنتبه لمكر البروفيسور؟ البروفيسور لم يفرج عنه، بل هرب. نعم. كل ما في الأمر أنه نفذ خطتنا – كريم و أنا- بمكر و سذاجة انطلت علينا، على الرغم من أن كلينا لفت نظره غيابه في الحمام.. هل استخدم البالة التي زحزحتها على مدي ساعتين و لم أستطع زحزحتها مرة أخرى و إعادتها لمكانها؟ هل هرب من النافذة الأخيرة التي اكتشفتها أنا؟

علينا أن نتداول في الأمر أنا و كريم، الذي كان في هذه اللحظة يحاول تهدئة الشيخ مصطفي، وهو يصرخ أمام البوابة بوجهه المبلل بالعرق و الزبد، بينما تقدمت امرأته للمرة الأولي وحدها في العنبر دون زوجها، و سمعت صوتها – للمرة الأولي أيضًا- وهي تنادي على الشيخ مصطفي صائحة:

"ربنا على الظالم و المفتري و ابن الحرام يا مصطفي...

صحتك يا شيخ مصطفي.. مروءة يا جماعة.. هاته يا بني من قدام البوابة.. هاته..".

التفت إليها الشيخ مصطفي وواصل صراخه بغضب أشد:

"ارجعي يا وليه .. ارجعي يا و ليه قبل أن أرمي عليك اليمين..."

ما أدهشني أنها استجابت على الفور، و استدارت عائدة بخيمتها السوداء دون أن ترد بحرف واحد.

في هذه اللحظة فقط، استعدت الكارثة التي ورّطت نفسي فيها .. ما هذا الكابوس الفظيع الذي لا ينتهي، وكيف وصلت إلى ما وصلت إليه منذ وطأت قدماي ملهي القطين، بل منذ خطوت عبر بوابة المول.. هل كنت أتصور أنني سأقابل عزة مرة أخرى .. وهل هي عزة حقًا.. منذ رأيت الرجل المذبوح في حوض الاستحمام في ذلك الصباح اللعين، و أنا أقع في فخ تلو فخ حتي تورطت أخيرًا في هذا السجن. لابد أنهم فصلوني الآن من عملي. تجاوزت الخمسة عشر يومًا غياباً بدون إذن، ولابد أيضًا أنهم أرسلوا لي قرار الفصل بالبريد. لم يبق أمامي إذن إلا الفرار، مثلما فرّ البروفيسور الماكر الذي غافلنا جميعًا.

بحثت بعيني عن كريم. وجدته يربت على ظهر الشيخ مصطفي، ثم سحبه من ذراعه و مضي به. الغريب أن الشيخ مصطفي استجاب.. توقف عن الصراخ و أخذ جسمه يهتز بقوة، ثم نفض ذارعه متخلصاً من كريم و أسرع في اتجاه نهاية العنبر، إلا أن البكاء غلبه مع هذا، و كان صوت بكائه مؤلماً، فقد انفجر فجأة بعد أن غالبه كثيرًا وبدا كسيل متدفق لا يملك وقفه.

فقدت صوابي وطرت نحو البوابة المعدنية، رحت أخبط عليها بكل قوتي شاتماً أمن الدولة و الحكومة و الرئيس، و تذكرت ملهي القطين فشتمته وشتمت أصحابه و جرسوناته و نسوانه الشراميط، ثم توقفت مدركاً أن لا أحد سيرد عليّ، فلم يحدث من قبل أن لمحت ظل – مجرد ظل- أحدهم، وكل ما كان ممكناً رؤيته و لثوان قليلة فقط هو أيديهم، فكيف أتوقع أن يرد أحدهم عليّ؟ ألم يستفزهم كل هذا السباب من الشيخ مصطفي و مني؟

شدّني كريم فاستجبت له مثلما سبق للشيخ مصطفي أن استجاب و عدنا إلى فرشته. أسندت ظهري إلى الجدار و أشعلت سيجارة.

بادرني كريم بمجرد جلوسنا قائلاً:

"على مهلك... التماسك لأننا نحتاج للهدوء و العقل.. أنا رأيي أن الخواجة تم تهريبه ونحن نائمون...".

وجدتني أرتجف لا أستطيع السيطرة على نفسي، وخرج صوتي عالياً رغماً عني و أنا أجيبه:

"و لماذا تم تهريبه؟.. أكاد أجن يا كريم.. ربما توصل إلى النافذة نفسها التي حكيت لك عنها في المخزن..".

"أولاً لا ترفع صوتك، و ما ينتظرنا أخطر مما تتصور... ثانياً لا أحد كان يمكنه تحمل مسئولية سجن الأمريكي. لقد بدأت أميل إلى تصديق ما قاله اللواء لك عن علاقة البروفيسور بتهريب الآثار."

وكان اللواء رياض قد ألمح بذلك عدة مرات، ثم راح يبث شائعات حول وجود موبايل مع أحد القادمين الجدد، وكان يقصد البروفيسور. وكريم أيضًا كان يشك في وجود موبايل مع البروفيسور لأنه كان يسمعه كثيرًا يتحدث بينه وبين نفسه. فلفت نظر كريم إلى أن البروفيسور كان مذهولاً و يائساً تمامًا، و كل ما في الأمر أنه يتحدث مع نفسه.. الآن اكتشفت كم كان هذا البورفيسور ماكراً و استغفلنا جميعًا.

لوي كريم ذقنه بتلك الحركة المميزة وقال لي بصوت خفيض:

"كل ما استطعت تفسيره من كلام الخواجة الذي تقول إنه كان يائساً ويكلم نفسه، كان يتردد فيه كلمة mummy ومعناها كما تعرف مومياء..".

"لا أعرف يا كريم كيف أجيبك.. هذا ما كان ينقصنا.. بروفيسور أمريكاني و تهريب آثار و مومياوات... ثم يهرب البروفيسور من بيننا كلنا...".

"البروفيسور لم يهرب بل تم تهريبه.. صدقني.. و يجب منذ الآن إذا أردنا لخطتنا أن تنجح أن نأخذ كلام اللواء مأخذ الجد..".

ومال ناحيتي يضيف:

ويجب أيضًا أن نجد طريقة لتفتيش حقيبته.. نحن نحتاج لهذا الآن أكثر من أي وقت مضي.. يجب أن نعرف ما حكاية رياض...".

اتفقنا – كريم و أنا- على أن الخطأ الأساسي الذي ارتكبناه أننا لم نتدبر أية طريقة لمعرفة سر الخواجة نيلز قبل هروبه. كان رأي كريم أن نيلز تم تهريبه من الجهة التي تحبسنا، أيا كانت هذه الجهة، فلا أحد يستطيع تحمل مسئولية حبس واحد أمريكي أو اختطافه أو مجرد تقييد حريته، وهو ما كنت مقتنعاً به. الأغلب – كما نجح كريم في إقناعي- أنهم انتبهوا إلى خطئهم قبل مرور أسبوع وقاموا بتصحيحه فوراً.. أي أن ما جري للبروفيسور إذن ليس مقدمة للإفراج عنا.

وإذا كنا قد أخطأنا بعدم اقتناص أية فرصة لتفتيش نيلز، فإن هذا يجب أن ينبهنا إلى الإسراع بتحين الفرصة لتفتيش حقيبة اللواء رياض، و المشكلة في الحقيقة أنه لا يفارق حقيبته الجلدية البنية اللون، فهو لا يكتفي بأن تكون عيناه دائمًا عليها إذا كان في العنبر يتمشي أو يتبادل الحديث مع أحدنا و هي على فرشته قابعة و ظاهرة له، بل يأخذها معه إذا غاب وذهب إلى الحمام، وحين يغسل ملابسه يصطحبها معه أيضًا، و يشعها بجانبه و هو ينشر الملابس على الجدار المواجه للحمام.

بعد اختفاء البور فيسور على أيضًا أن أكون أكثر حذراً في نفقد المخزن. لذلك عدت من منتصف المسافة بين العنبر و

الحمام، و اتجهت لكريم الذي كا ما يزال على فرشته. كان يمضغ بقايا "بابا غنوج" أكلت منه في أول النهار بنهم شديد، فهي المرة الأولي التي يحضرون لنا فيها طعاماً أو الشيدر و شرائح الطماطم أو الخيار...

قلت لكريم:

"ما الحكاية .. هل يقدمون لنا رشوة بعد اختفاء البروفيسور.. أول مرة نأكل باب غنوج..".

أجابني بابتسامة خاطفة:

"الأهم من هذا ما فعله الشيخ مصطفي..".

ماذا فعل؟...".

"للمرة الأولي لم يمتنع عن تقسيم الأنصبة فقط، بل ورفض أن يتسلم نصيبه أو نصيب زوجته".

نهضت متجهاً للممر المفضي إلى الحمام ومن ثم المخزن، بينما كان اللواء رياض قادماً، فبادرته عندما واجهني:

"بدأت أقتنع أن البروفيسور- كما تقول أنت و كريم- كان معه موبايل..".

ضحك ساخراً وهو يتفحصني:

"اقتناعك جاء متأخراً يا أستاذ... بعد أن طار البروفيسور..".

جاريته في سخريته قائلاً:

"و متي نطير نحن أيضًا يا سيادة اللواء . بالمناسبة لقد رأيت أوراقي، و كريم معه بطاقة الكلية و الشيخ مصطفي معه بطاقته العائلية.. أما أنت فلم نشاهد أي أوراق معك..".

استطعت أن ألمح ارتباكه في البداية، إلا أنه عاجلني خافضً صوته:

"أنت لست موظفاً في الإدارة التعليمية فقط بل ضابط مباحث أيضًا.. أوراقي سرقوها كما سرقوا تليفوني المحمول بعد أن ضربوني.. وعموماً أنا لن أسكت و سوف أقيم الدنيا و أقعدها، فإذا كنت قد أحلت إلى الاستيداع إلا أنني ما زلت أحمل رتبتي كلواء سبق له أن خدم الوطن قبل أن تولد أنت..".

و استدار عائداً إلى العنبر، غير أنه توقف فجأة و التفت لي زاعقاً تقريبًا:

"تريد أن تطير مثلما طار البروفيسور؟ و تريد أن تري أوراقي؟ و ماذا تريد أن تري أيضا يا سعادة البك؟... طلباتك؟... أوامرك؟... اسمع يا محترم تأكد أنت و كريم أنني أسمع دبيب النملة و لا يفوتني شيء مما يجري في العنبر...".

غالبت انفجاري في الضحك، فقد كان تهديده فكاهياً لأن لا أحد منا يعلم تهمته أو سجانيه أو متي سيخرج. و في الوقت نفسه أدركت أنني كنت غبياً بمبادرتي في الهجوم عليه على هذا النحو السافر. المفروض أن أؤجل أي صدام معه،

إلا أنني كنت قد تورطت.. واستطعت أن أتماسك قليلاً و أجبته:

"يا سيادة اللواء كلنا على فيض الكريم.. أظن أن الأفضل لنا أن نتعاون معًا و نبحث عن طريقة للخروج من هذا الكابوس..".

توقف صامتًا يحدق إلى. كانت ملابسه نظيفة كالعادة، فقد كان أكثر حرصاً من الجميع على غسل ملابسه، بل وكان يخفي قطع الصابون القليلة التي تصلنا مع بقايا الطعام لاستخدامه وحده، لكن لحيته طالت و شعره أيضًا، مما منحه مظهراً أبعد ما يكون عن مظهر الرجل العسكري، على الرغم من جسمه الرياضي المدكوك جيدًا. أما أنا فقد كنت أكثر ارتباكاً لأنني أدركت متأخراً أنني يجب أن أحرص لي اتقاء شروره بدلاً من أن أفصح له عن شكوكي بهذه الطريقة الساذجة، فأضفت بسرعة:

"لم أقصد بالطبع أن أشكك في كون سيادتك لواء.. لكنني أظن أن هناك لبساً ما أو سوء تفاهم، لأنهم لو عرفوا أنك لواء لن يفعلوا بك ما فعلوه..".

تململ في وقفته وقاطعني:

"قلت لك سأقيم الدنيا و أقعدها.. إن صبري بدأ ينفد.. أنا هنا منذ اثنين وثلاثين يومًا.. صحيح أنني أعزب لكن لي أقارب، و أقارب مهمون يستطيعون أن يوصلوا صوتي لأعلى سلطة في البلد.. لرئيس الجمهورية نفسه..".

توقف عن الكلام لحظة قبل أن يضيف:

"أكيد سيادة الرئيس لا يعرف ما فعلوه معي طبعًا..".

برق في ذهني اقتراح قررت أن أبادره به قبل ان يتم جملته:

"ما رأيك يا سيادة اللواء.. نحن نحتاج للجلوس معًا نحن الأربعة . ربما نصل لأي حل لهذه المتاهة...".

أجابني بسرعة، بل قاطعني:

"لا متاهة و لا يحزنون. إن من حبسونا أعضاء تنظيم سري شيوعي أو إخواني.. أنا مقتنع بهذا .. ألم تكن ذاهباً لدورة المياه؟ عندما تعود نستكمل كلامنا في العنبر..".

تفحصني جيدًا ثم استدار عائداً. انتظرت حتي غاب، و اتجهت متمهلاً نحو دورة المياه. غسلت وجهي جيدًا بالصابون، و انتظرت قليلاً وعندما لم أجد أحدًا، جعلت أنظر حولي منصتاً، وفي النهاية حزمت أمري و انطلقت إلى المخزن. سوف أحسم الآن ما إذا كان البروفيسور قد استغفلنا وهرب من النافذة نفسها التي اكتشفتها، بل و استخدم البالة نفسها التي احتاجت مني إلى كل هذا الجهد، الذي هدّ قواي. مضيت بين أعضاء المانيكانات و الصناديق و أكوام القطع المعدنية و أحشاء الكومبيوترات و التراب. وجدت بالتي ما تزال في مكانها، فقفزت فوقها على الفور. أتذكر جيدًا أنه كان هناك أحد القضبان اللينة الذي انثني في يدي و كاد يطاوعني. المدهش ان القضيب انثني بالفعل، غير أنه كان ما يزال في مكانه، و المسافة

بين القضيبين لا تكفي مطلقاً لعبور طفل، وكانت خطتي في الأصل نزع هذا القضيب اللين ليتسني لي- و لكريم بالطبع- الهروب.

أسقط في يدي..

البروفيسور تم تهريبه إذن بواسطتهم، ولم يهرب عن طريق النافذة..

ما قاله كريم هو الصواب. لقد تنبهوا إلى خطئهم في حقه، و لم يكن ممكناً لهم أن يتحملوا مسئولية حبس أمريكي. الشيخ مصطفي اتهم الحكومة علناً ووصف الحكام بأنهم أذناب أمريكا و عبيدها. و أنا أيضًا تورطت و هاجمت أم الحكومة و الدولة و المسئولين و ملهي القطين بأصحابه و جرسوناته و نسوانه الشراميط. سواء كانت الحكومة هي التي هربته أو أصحاب ملهي القطين كما يشاع أو حتي مهربو الآثار كما يقول اللواء رياض، فإن المؤكد ، أن الكابوس الذي أعيش فيه منذ خمسة عشر يومًا تقريبًا بدا ينطوي على قدر من المعقولية، ومجرد اختفاء أو هروب أو تهريب الخواجة هو خطوة إلى الأمام.

لأحاول أن أرتب الوقائع... أنا الوحيد الذي جئت من الباب الخلفي مثل البروفيسور، هل حضرنا معًا الندوة الثقافية الحافلة نفسها؟ لا... لأنه جاء هنا قبلي بيومين. أتذكر جيدًا أنه حاول الانفراد بي في البداية لكنني عاملته بجفاء، وعندما أدركت أنني في سجن حقيقي و سعيت للتعاون معه لحل لغز مجيئنا معًا من المخزن نفسه، لم يستجب و بدا زائغ العينين بملابسه لرثة و رائحته التي لا تطاق.

لابد أن نتحدث أنا و كريم مرة أخرى في هذا الأمر، فلا أريد أن أتسرع في إصدار الأحكام و تصديق الدلائل التي تشير إلى أنه تم تهريبه ولم يهرب وحده دون أن أفحصها. أولاً ربما هرب من أحد الأبواب الجانبية الأربعة في المخزن، والتي لم أفحصها بعد. ثانياً هناك احتمال آخر بأنه توصل لطريقة ما عبر الحمامات و من خلال النوافذ العلوية التي لم تغب عن بالي، وإن كنت قد أجلتها لحين الانتهاء ن فحص المخزن. ومع كل هذا ، إلا أنني يجب أن آخذ في اعتباري الاحتمال الأقوي و هو أن البروفيسور استغفلنا جميعًا و تم تهريبه.

لابد أن وقتاً طويلاً قد مضي، وسيشعر اللواء رياض بتأخرى و يعود لمطاردتي، لذلك قفزت من البالة مؤجلاً فحص الأبواب الجانبية المرة قادمة، خصوصًا أنني طلبت منه أن نجلس معًا نحن الأربعة و نتحدث في الأمر.. حزمت أمري ثم اتخذت طريقي للخارج.

كان أول رد فعل من جانبهم على ما فعلناه – الشيخ مصطفي و أنا- عقاباً جماعيا لم ينج منه أحد. أمس و اليوم تركوا لنا في الصندوق الكرتون كسرات خبز ناشف فقط طال العفن بعضه. نعم .. فقط ... أين بقايا الجبن و البسطرمة والمخلل و السجق و شرائح الخيار والطماطم وبقايا التفاح و بعض أصابع الموز أحياناً و السجائر و بقايا الصابون؟

في اليوم الأول لم نتناول كسرات الخبز و تركناها في صندوقها. لحسن الحظ كان كريم يحتفظ بسيجارتين للطوارئ، كما بقيت معي سيجارة من اليوم السابق. و اتفقنا أنا و كريم أن نتقاسم السجائر الثلاث على مدي اليوم بطوله، ونحن جالسان على فرشته. وكنت حكيت له ما جري بيني و بين اللواء رياض، و اعترفت بخطئي قبل أن يسارع إلى تأنيبي لأنني بادرت بالهجوم على رياض على هذا النحو السافر، ثم طمأنته بأنني اعتذرت له، بل وطلبت أن نعقد اجتماعاً مشتركاً نحن الأربعة للنظر فيما سيجري لنا بعد تهريب البروفيسور. على الرغم من أن فارق السن بيننا أكثر من خمسة عشر عاماً، إلا أنه يملك تقديراً صائباً، كما إنه هو الذي استقبلني ووثق بي ووثقت به، لذلك لا أخطو خطوة دون استشارته.

رأي كريم أن اليوم الذي اكتشفنا فيه هروب الخواجة نيلز ليس مناسباً لمثل هذا الاجتماع الذي ورّطته فيه، لأن هذا الاجتماع لن يغدو أن يكون استجواباً منه لنا أنا وكريم، و بالفعل اتجهت إلى اللواء و أخبرته أن الأفضل عقد اجتماعنا غدًا و خصوصًا بسب حالة الشيخ مصطفي النفسية، و ما أصابني بالدهشة أنه أجابني في مناورة مكشوفة:

"أي اجتماع؟.. وهل سيصدر عن مباحثاتنا بيان مشترك؟".

فوجئت بسخريته التي لم يبذل أي جهد في إخفائها، وفضلت أن أفوت عليه الفرصة... قلت:

"منذ قليل يا سيادة اللواء اقترحت عليك أن نجلس معًا نحن الأربعة و أظنك لم تمانع..".

أجابني بسرعة:

"ما الذي غير رأيك بهذه السرعة... الولد كريم طبعًا.. أنا أعرف أنك لا تستطيع أن تتخذ قراراً وحدك، لكني أحذرك و أبلغ كريم أيضًا على لساني.. لن أسمح بقيام أحزاب و شلل داخل العنبر..".

انسحبت بهدوء و تركته و أن أغالب ابتسامتي . أعطيته ظهري و اتجهت إلى فرشة كريم.

بالأمس بدأ العقاب الجماعي ، و إذا كنا قد رفضنا جميعًا أن نتناول كسرات الخبز في البداية، إلا أننا اضطررنا في نهاية اليوم لتناوله بعد استبعاد الأجزاء العفنة. و في اليوم التالي لم نعقد اجتماعنا المشترك أيضًا، فقد فوجئنا بعقابهم، كما أن اللواء رياض رفع صوته صارخاً وسط العنبر بعد أن استبد به الجوع:

"الحسنة تخص و السيئة تعم..هذا مبدأ معمول به في العسكرية.. وهنا أيضًا .. هذا هو ما استفدناه من الكلام الفارغ وقلة الأدب التي جرت هنا بالأمس ... منعونا الأكل جميعًا..من صرخ و شتم .. ومن لم يشتم.. سنأكل العيش الحاف منذ هذه اللحظة..".

واستدار عائداً إلى فراشه يكاد يرتجف.

تلك هي المرة الأولي التي أراه منفعلاً. كان يتميز بالقدرة الفائقة على الانتباه لكل كبيرة و صغيرة، فهو لم يكن أول من اكتشف اختفاء البروفيسور فقط، بل كان أول من أشار إلى وجود تليفون محمول معه، و أول من استجوبني عندما ألقوا بي في هذا السجن، و أول من استجوب كريم كما أخبرني، كان حريصًا على أن تكون ملابسه نظيفة، بل و تبدو كأنها مكوية، على الرغم من أنها لم تكن أكثر من قميصين و سروالين و ترننج سوت من أجل طابور الرياضة و النوم فقط. يأخذ حماماً كل يوم و يعلق سترته التي لم أره يرتديها مطلقاً – على الجدار أعلى فرشته مسنودة على ورقة جرنال. وعندما يغسل ملابسه، كان

ينشرها على الجدار بطريقة خاصة بحيث تبدو عندما يرتديها على جسمه الرياضي المدكوك مفرودة كأنها مكوية. وقبل أن ينام كان يثني سرواله و يضعه تحت فرشته ليكون مكوياً و نظيفاً في الصباح عندما يرتديه.

خرج الشيخ مصطفي من خيمته على صياح اللواء رياض وهو يتهادي ببطء. خيل إلينا أنه طعن في السن فجأة، وهو ينقل قدميه على مهل، فأسرعت أنا نحوه، ثم توقفت عندما لمحني وراح يحاول استعادة مشيته الحازمة التي كان يتميز بها.

قال له كريم لما اقترب منا:

"تفضل يا مولانا..".

وخفض من صوته مضيفاً:

"حتي اللواء رياض .. ها هو يفقد أعصابه..".

و أفسح بجانبنا مكاناً للشيخ الذي خلع حذاءه و قرفص إلى جوارنا يبادلنا الهمس:

"سلام عليكم . .. المهم أن يكون فقد أعصابه فعلاً ولا يمثل علينا..".

رحنا نتبادل النظر ثلاثتنا. اكتشفت في هذه اللحظة أن لحانا طالت و أظافرنا و شعورنا. ربما كان الشيخ مصطفي أقلنا بهدلة بسبب عناية امرأته به. وكان قد ذكر لي عرضاً أن الله لم يرزقه بأبناء، ولذلك فإنه ما يكاد يختفي عن عينيها حتي يصيبها الهلع، كأنه طفلها الصغير.

فكرت في أن كل حكاية من حكاياتنا ليست كاملة. أقدمنا. الشيخ مصطفي و أول من شرف هذا العنبر، تبدو حكايته مثل سائر الحكايات غير كاملة. هناك جانب محدد يخفيه، شأنه شأن اللواء رياض الذي كان على موعد مع أصحاب الشاليه المعروض للبيع في الكافيه شوب، وحكاية البروفيسيور الذي اختفي فجأة و تم تهريبه. حتي حكايتي أن أخفيت منها الليلة التي قضيتها مع عزة و الرجل في حوض الاستحمام الذي رايته في ذلك الصباح اللعين.

ربما كانت حكاية كريم وحدها شبه كاملة، فهو لم يخف عني أنا تحديداً أي شيء فيما أظن. ول كنا في سجن الحكومة لبدت حكايته مقنعة ، والمشكلة – كما قال هو – وقد عرف السجن الحقيقي، أننا لسنا في سجن حقيقي.

لدهشتي فوجئت باللواء رياض يتقدم نحونا زاعقاً:

"لقد سبق أن أبلغتك يا محترم أنني لن أسمح بقيام أحزاب و شلل في العنبر.. ألا يكفي ما فعلتماه أنت و الشيخ مصطفي؟..".

أجابه الشيخ:

"اسمع يا سيادة اللواء.. هل سنتركهم يقتلوننا من الجوع؟.. هذا هو اليوم الثاني لنا بلا طعام...".

"السبب أنت وهذا الأفندي يا شيخ مصطفي.. كانت قضيتنا على وشك التحرك باختفاء البروفيسور الأمريكاني..".

تدخل كريم قائلاً:

"البروفيسور أمريكاني.. يعني لا يستطيع أحد أن يحبسه..".

قاطعه الشيخ مصطفي:

"الحكومة قوية على المسلمين فقط.. أما الأمريكان...".

ولم يستطع أن يتم جملته.. قاطعه اللواء رياض:

"الحكومة مرة أخرى.. ألم يكفك ما فعلته أنت و هذا الأفندي؟..

أي حكومة التي تحبس لواء يا مصطفي؟ تذكر أنك تكلم لواء...

هناك تنظيم سري شيوعي أو إخواني هو الذي يحبسنا..".

قال كريم:

" يا سيادة اللواء أنت مجنون؟ أي تنظيم سري هذا الذي يحبسنا جميعًا؟.. ثم إن العقاب الجماعي الذي نتعرض له بمنع الطعام عنا حدث بعد الهجوم الذي شنه الشيخ مصطفي ضد الحكومة..".

أجابه اللواء رياض:

"يا ابني أنت طفل ما زلت تشخ على روحك.. ما الذي تعرفه عن التنظيمات السرية و ما تفعله؟...".

قلت أنا:

"يا جماعة هناك شيء أهم.. لا تنسوا أنهم يمنعون عنا الطعام لليوم الثاني.. ما العمل؟..".

وردّ الشيخ مصطفي:

"ألم أقل لك إنهم سيقتلوننا من الجوع. لقد رأيت بنفسي الخواجة أكثر من مرة وهو يعبث بأسلاك الكهرباء بعد الممر...".

فوجئنا جميعًا ورفع كريم صوته قائلاً:

"لماذا لم تقل لنا من قبل؟ و ما علاقة الكهرباء بقتلنا من الجوع؟..".

"يقتلوننا نحن المسلمين من الجوع و يكلمون الخواجة الأمريكاني على المحمول.. رأيته بعيني يعبث بأسلاك الكهرباء و لا شك أنه كان يشحن محموله...".

تذكرت النافذة العرضية التي تفقدتها بالأمس، منتهزاً التوتر و الجو المشحون الذي ساد عقب اكتشاف اختباء البروفيسور. سأسعي للتسلل اليوم بأية طريقة و أعود لمعالجة القضيب غير الثابت، والذي يمكن – لو نجحت في خلعه- أن نقفز أنا و كريم منه. فبعد منع الطعام عنا، أصبحنا مهددين بالموت جوعاً، ولا مفر الآن من الهروب فهو الحل الوحيد قبل أن نموت، والأسوأ أن يمرض أحدنا، ولا أظن أنهم سيتحركون حتي في حالة المرض. على أيضًا أن أتفقد الأبواب الباقية، ولمع خاطر كالبرق... ماذا لو انتهزت فرصة نوم الجميع وتسللت في الليل. المخزن، شأنه شأن العنبر، يحتفظ بإضاءة ثابتة لا تتغير و سيكون

أمامي وقت كاف لتفقد كل شيء واكتشاف أي ثغرة تمكننا من الهروب.

فاجأنا الشيخ مصطفي بما لم نكن نتوقعه. مد يده إلى جيب جلبابه و أخرج ثلاث سجائر وزّعها علينا قائلاً:

"هذه السجائر أرسلتها معي الحاجة لكم.. كانت تحتفظ بها دون أن تخبرني... لندخن و نتأمل و نتدبر.. ما رأيكم لو صلينا الظهر جماعة يا إخوان و ندعو الله أن يجد لنا مخرجاً؟...".

انشغلنا جيمعًا بتدخين سجائرنا بلهفة و شوق. وبإشارة بسيطة مني إلى كريم اكتفينا بإشعال سيجارة واحدة واستبقينا الثانية لندخنها فيما بعد. أطاح بي الدوار مع الأنفاس الأولي للسيجارة، ووجدتني أهتف رغماً عني:

"جزاك الله كل خير يا مولانا.. يا ســـ... لام...".

ابتسم الشيخ رغماً عنه و أجابني:

"البركة في الحاجة .. هي صاحبة الفضل بعد لله سبحانه وتعالي...".

كان اللواء رياض ما يزال واقفاً، لكنه استند إلى الجدار و مضي يدخن سيجارته في أنفاس متلاحقة مغمضاً عينيه تقريبًا حتي انتهي منها في ثوان قليلة. تغير برنامجه ولم يعد لممارسة رياضته الصباحية بالجري و التمرينات الخفيفة، بل إنه لم يكن قد استبدل الترننج سوت بالقميص والسروال كما تعود، وبدا منهكاً يتنفس بصوت مسموع.

قال كريم:

"لماذا نقف هكذا يا سيادة اللواء؟.. تعال اجلس معنا لنفكر معًا .. نحن نواجه خطر الموت جوعاً.. ماذا نفعل؟..".

"السبب في هذا هو التطاول و استعداء السلطات.. علينا بدلاً من ذلك أن نعتذر.. وخصوصًا الشيخ مصطفي ومن معه..".

قاطعته:

"الشيخ مصطفي هنا منذ أكثر من خمسين يومًا لم يفتح فمه خلالها و مع ذلك لم يفرجوا عنه.. و كذلك أنت هنا منذ أكثر من ثلاثين يومًا وكريم وأنا ... لم يفتح أحد فينا فمه.. ومع ذلك لم يفرجوا عنا..".

وأضاف كريم:

"ثم إن الشيخ مصطفي و من معه كانا يشتمان الحكومة و الدولة.. و أنت تقول إن من يحبسنا تنظيم سري..".

أجابه اللواء رياض:

"ليس ضرورياً أن يكون تنظيماً سرياً.. ربما كان ملهي القطين هو الذي يحبسنا.. و في كل الأحوال كانت قضيتنا على وشك التحرك بعد الإفراج عن الخواجة نيلز و ما فعله الشيخ مصطفي و الأفندي أفسد كل شيء...".

واستدرنا جميعًا عندما سمعنا صوت امرأة الشيخ مصطفي تكاد تصرخ:

"يـا شـيخ مصـطفي .. يـا جماعـة.. إنهـم يفتحـون بـاب العنبر...".

نهضنا مرة واحدة و هرولنا باتجاه البوابـة و قبل أن نصـل كـانوا قد عـادوا لإغلاقهـا، ولمـا اقتربنـا، وجـدنا الصـندوق الكرتوني مليئاً كالعـادة ببقايا الطعـام فتوقفنـا ورحنـا نتبـادل النظر حتي تقدم الشيخ مصطفي كالعـادة و حمل الصـندوق ليوزع علينا الأنصبة.

لم يكن ما عثر عليه كريم مما يمكن توقعه مطلقًا. صحيح أنه لم يعثر عليه بالمصادفة تمامًا ، إلا أنه في كل الأحوال ضاعف من غموض ما يجري، وربما سيؤدي بنا إلى المزيد من التخبط.

قررت مع كريم – بعد المواجهات التي جرت مع اللواء رياض – أن أتوقف أنا مؤقتًا عن فحص أبواب و نوافذ المخزن، لأننا لاحظنا أن مراقبته لنا أصبحت شبه علنية، وفي الوقت نفسه كان كل يوم يمر علينا، وربما كل ساعة، يؤكد لنا أنه لا مفر أمامنا إلا الهرب. لذلك كانت خطة كريم أن نستغل الوقت في فحص منطقة الحمام جيدًا، فإذا لم نعثر على إمكانية للهروب من نوافذه، فيمكنني أن أعاود بحثي في المخزن فيما بعد، و حينما تخف مراقبة اللواء رياض.

بطبيعة الحال، لن يشك اللواء رياض في ذهابنا اليومي للحمام عدة مرات، و قسمنا التواليتات بيننا بعد أن استبعدنا الفتحات و النوافذ المقامة أعلى المباول لأنها تطل على الممر المفضي إلى المخزن، كما استبعدنا في الوقت نفسه الفتحة المقامة أعلى الحوض الكبير في نهاية الممر الفاصل بين الحمامات و المباول لأنها تطل على الممر نفسه أيضًا.

وعندما لمحت كريم مقبلاً من بعيد أدركت أن وراءه اكتشافًا ما، خصوصًا أنه كان آتيًا من ناحية الحمام. ولاحظت أنه – زيادة في الاحتياط و الحذر – تلكأ ليمر على ركن الشيخ مصطفي و تناول في طريقه نصيبه

اليومي من الطعام و السجائر، بل ورأيته متجهًا للواء رياض ووقف معه يتحدثان قليلاً، و في النهاية تهادي نحوي. كنت ممددًا ساقي على فرشتي و مضطجعًا كعادتي. همس وهو يقتعد طرف الفرشة:

"ألف ليلة يا يوسف.. كأننا في ألف ليلة التي لا تكف عن قراءتها..".

تأكد لي أنه يخفي وراءه سرًا جديدًا من غابة الأسرار الغامضة التي كنت أكتشفها كل يوم، لكنه كعادته لابد أن يدفعني لأقصى درجات التوتر أولاً. تمسكت بالصبر، و حاولت أن أرسم هدوءًا مفتعلاً على وجهي. قلت:

"هل وجدت جنيًا في الحمام و اتفقت معه على أن يهرب بنا.. أو ربما اكتشفت سردابًا سريًا يفضي بنا إلى الخارج..".

"يبدو أنك تعلمت خفة الدم و الفكاهة من صاحبك اللواء رياض..".

"يا عم خلصني ماذا وراءك؟...".

ابتسم و مال على هامسًا :

"حافظة أوراق.. عثرت على حافظة أوراق...".

"حافظة أوراق؟..".

"آه .. بعد انتهيت من فحص التواليت الثالث، بل وخروجي منه دون أن أنجح في العثور على أي ثغرة، فكرت أن أتحسس التجويف الصغير بغطائه الصلب الموجود على

يسارك عندما تدخل م الباب الخارجي.. لا أحد يلتفت إليه عادة بسبب أسلاك الكهرباء و التوصيلات الموجودة فيه... و تذكرت أن الشيخ مصطفي قال أمامنا أنه شاهد الخواجة بارفود يشحن الموبايل منه.. ألم يقل لنا ذلك؟...".

"نعم..تذكرت وماذا وجدت يا كريم..قل لي فورًا ماذا وجدت؟..".

"خلف الأسلاك و التوصيلات لمحت كيسًا من النايلون...كنت خائفًا من أن تصعقني الكهرباء، لذلك خاطرت بالذهاب إلى المخزن حيث عثرت على عود من الخشب ساعدني في تخليص الكيس الذي كان ملفوفًا في عدة أكياس أخرى. وفي النهاية وجدت أجندة للبروفيسور..".

"وهل نسيها البروفيسور و خرج بدونها؟..".

"اسأل البورفيسور..".

و انفجر في الضحك، ثم انتقلت عدوي الضحك لي، إلا أننا سرعان ما انتبهنا معًا و توقفنا خوفًا من أن يلاحظنا اللواء رياض. و أضاف كريم بسرعة:

"و المفاجأة أن بعض صفحات الأجندة مكتوبة بالعربية و إن كان أغلبها تقريبًا بالإنجليزية، وهناك أوراق أخرى مفردة و مثنية داخل الأجندة مكتوبة بالعربية أيضًا..".

"وهل قرأتها؟..".

"أنت مجنون..خفت طبعًا أن يفاجئني رياض، فأخفيت الأوراق المفردة في جيوبي، أما الأجندة فلففتها جيدًا و أخفيتها في أول كومة خردة في بداية المخزن على اليسار، وجريت قبل أن يظهر رياض..".

هل يعني هذا أننا أمسكنا بداية خيط ما؟.. أخيرًا...

قلت له بسرعة:

"اسمع.. أنا دائمًا أقلب في ألف ليلة.. أعطني الأوراق أضعها داخلها و أستلقي لأقرأ.. اذهب أنت إلى فرشتك ، ثم أحكي لك فيما بعد حتي لا يشك فينا اللواء رياض...".

تلفت حوله، و أخرج من جيبه بضعة أوراق مثنية. تناولتها منه و دسستها بسرعة داخل الجزء الذي كان في متناول يدي، ثم نظرت إليه قائلاً:

"سأقرأها أولاً..".

قاطعني:

"المهم ألا يلاحظنا رياض.. سنتصرف كالعادة.. نتناول طعامنا أولاً و أذهب أنا بعد ذلك إلى فرشتي و تقرأ أنت ألف ليلة كعادتك..".

بدأنا في تناول طعامنا، لكنني كنت شاردًا أفكر في أوراق البروفيسور.. إلى أين ستقودنا هذه الأوراق؟ كنت متلهفًا على قراءتها، فالطريقة التي خبأها بها الخواجة و المكان الذي اختاره لتخبئتها يؤكد أنني مقبل على أمر مختلف،

حتي لو كان فخًا جديدًا، لكنه مختلف على الأقل عن كل الفخاخ.

من مكاني ذاك ، كان بوسعي أن أشرف من بعيد على الستارة التي تفصل بين العنبر و بين عش الشيخ مصطفي. لم يعد أحد يهتم الآن بأن تحجب الستارة من وراءها أو لا تحجبه، بل لقد رأيت امرأة الشيخ مصطفي عدة مرات بدون نقاب. كانت امرأة أربعينية ذات وجه صبوح و جسم ممتلئ قليلاً، إلا أنها كانت حريصة على إخفاء تفاصيل ذلك الجسم. ولا أظن أن هذه الانفراجة كانت غائبة عن بال الشيخ مصطفي، غير أنه كان مضطرًا لأن يغمض عينيه بعد أن طالت الحبسة، خصوصًا بالنسبة له، منذ وطأت قدماه أرض العنبر قبل أكثر من خمسين يومًا.

كانت هناك موزتان تناولت إحداهما ثم أشعلت سيجارة. بدت امرأة الشيخ مصطفي ممددة الساقين عبر الستارة، ولم تكن مرتدية نقابها . كانت عيناها الواسعتان تنطقان بالشقاوة. في مرات، حتي و هي مرتدية نقابها ،كنت أشعر بهما مغويتين تتفحصاني جيدًا، وفي مرات أخرى مؤدبتين صارمتين توقفاني عند حدي. بات صوتها بالنسبة لي أملاً أسعي لسماعه و أنا في طريقي للحمام، و أتلكأ قدر الإمكان، خصوصًا عندما تكون الستارة مغلقة، و أصيخ السمع علّني أسمعها و أمني نفسي بأن تكون في إحدي لحظاتها الحميمة مع الشيخ.

قلت لكريم فارغ الصبر:

"سلام يا كريم..قم من غير مطرود..".

مـا إن غـادرني حتـي تمـددت ممسـكاً بـألف ليلـة، وفـردت الأوراق المسطرة بحجم الفولسكاب، كانت بالعربية مكتوبة بخط اليد الذي يتميز بالوضوح الشديد و العناية على الرغم من الأخطـاء البسيطة. حاولت ترتيب الأوراق على عجل وقرأت أخيرًا:

"حـاول إسـكندر سـفريوس أن يعـالج حالـة فقـر الـبلاد بـأن ألغي ضريبة التيجان. لكنـه كـان تحت رحمـة الجنـود الـذين كـانوا يقتلـون كـل مـن يقـف فـي طـريقهم، بـل وقتلـوا الإمبراطور ذاته. وهنا انتصرت الفوضي، فلم يزد حكم أي إمبراطور على أكثر من أربـع أو خمس سنوات، وفـي كل مكان تقريبًا ينصب في آن واحد الأباطرة لعدد محدود من الشهور بل الأيام. و تعاقب علـى العرش مكسيمين و ثلاثـة باسـم جورديـوس وفيليـب الغربـي دون أن تشـارك مصـر بقدر كبيـر فـي الدسـائس التـي أتـت بسـادة العـالم أو قضـت علـىهم. و تسـلم ديقيـوس السـلطة عـام ٢٤٩ وهـو آخـر إمبراطـور وصـلتنا خراطيشـه مدونـة بالهيروغليفيـة علـى سطوح جدران معبد إسنا".

لابد أن هذه الورقة تسبقها ورقات أخرى. حاولت استيعاب الوقائع و الملابسات أولاً، ثم أبحث عن البداية فيما بعد. لم يكن كل هذا التاريخ خطر على بـالي من قبل، علـى الـرغم من أنني قرأت عدة كتب و اهتممت ببعض الفترات ، إلا أن ما قرأته جعلني أكثر شوقاً لمتابعة الأحداث التالية علـى تـولي آخـر إمبراطـور وصـلت خراطيشـه مدونـة بالهيروغليفية:

"إن (البليمي) وهي قبائل همجية قادمة من الجنوب عجزت مملكة مروي أن تردعها ، قد أخذت تهاجم مصر و أعادت حدود الإمبراطورية إلى جزيرة فيلة. وفي غضون عشرين سنة سوف يصلون إلى مشارف مدينة كوبتوس. وحتي عام ٢٨٤ عندما تربع دقلديانوس على العرش، كان خراب الإسكندرية تامًا من جراء محاولتها المشاركة في التنافس على زعامة الإمبراطورية. و أغرب هذه الوقائع قيام جيش تدمر ببسط سلطانه على مصر بعد أن هزم بريوس حاكم الإسكندرية. هكذا أصبحت زنوبيا ملكة على منطقة شاسعة تزيد عن تلك التي كان في مقدور أعظم الفاتحين المصريين أن يحلم بالسيطرة عليها . والآن ستصبح مصر ملكاً لمن يملك الجيش الأقوي، وسوف تستغل أسوأ استغلال، و لم تعبأ بأسيادها ولم يعد حتي في مقدورها أن تحاربهم".

لاحظت أن السطور التي تتحدث عن هذا الإمبراطور ديقيوس وضعت تحتها خطوط سوداء، وفي أسفل الورقة سطور أخرى مكتوبة بخط أصغر و مقوسة. تابعت القراءة:

"تم انتزاع هذه الأحجار التي تشكل جزءا من جدران معبد إسنا بطريقة فظة، مما عرض هذا الجزء للانهيار في وقت ما يتراوح بين نهاية القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين أثناء تولي ماريت أو ماسبيرو كمدير للآثار المصرية، وبعد بحث طويل و دقيق في أقسام الحضارة المصرية القديمة بمتاحف العالم تأكدنا أنها لم تخرج من

مصر مطلقاً، لذلك يجب العثور عليها بأية طريق، فهي الدليل الوحيد على استمرار الهيروغليفية لغة للدولة حتي هذه الفترة المتأخرة بعد أن كانت صفحة ملوك الفراعنة قد انطوت منذ زمن طويل".

أغلقت ألف ليلة وقد غلبني الدوار. أغمضت عيني و فتحتهما عدة مرات و نظرت حولي. كان اللواء رياض يروح و يجيء قاطعاً العنبر و كريم مستلق على فرشته متصنعاً النوم، فلا شك أنه متلهف على قراءة الأوراق التي اكتشفها، بينما كانت ستارة جناح الشيخ مصطفي ممتدة أخفته مع امرأته وراءها.

لم أستطع أن أقاوم أكثر من ذلك، و توقفت خائفًا أن يفاجأني اللواء رياض بقدومه دون أن أشعر. ولم ألبث أن تناولت ألف ليلة مرة أخرى. رحت أقلب.. كانت هناك أوراق أخرى، وضاعف خوفي من رياض، ارتباكي في ترتيب الأوراق التي كان على إخفاؤها عن عينيه، إلا أن اختلاف الحجم و اللون ساعدني على ترتيبها. اخترت في النهاية أوراقاً تحمل العنوان التالي: "مذكرات عن بلزوني" مكتوباً في وسط السطر بخط قوي واضح وتحت الياء الأخيرة نقطتان متجاورتان. راحت عيناي تجري بسرعة لأقرأ عن واحد اسمه جيوفاني باتستا بلزوني ولد في بادوا بإيطاليا في نهاية عام ١٧٧٨، وهو الابن الرابع لحلاق متواضع . عمل أولاً كبائع متجول في أمستردام، ثم قدم فقرات في رفع الأثقال و تمثيل بعض الأدوار الثانوية في مسرح ساولر ويلز في لندن. و بعد عدة سنوات، و

بالمصادفة قام بلزوني، بالتمثيل في فاليتا بمالطة و التقي هناك بالقبطان إسماعيل الجبلطار وكيل الباشا محمد على".

توقفت قليلاً وقد تسارعت أنفاسي. ها هو الكابوس يتسع و يتسع دون أن أقدر على مواجهته أو حتي متابعته واستيعابه . ها أنا أنحدر إلى فخ جديد، و إلى أين ستقودني هذه الأوراق؟ .. أظن أن هذه الأسماء ليست جديدة عليَّ، و ربما قرأت بعضها في الكتب التي تسليت بها عن الحضارة المصرية القديمة.

على كل حال، لابد أن أتباع ما أقرأه من أوراق البروفيسور، وفي الوقت نفسه أظل منتبهاً و أرفع عيني بين الحين و الآخر لأحدد مكان رياض. تحدثت الأوراق أيضًا عن "وكيل الباشا إسماعيل الجبلطار الذي اصطحب معه الممثل ورافع الأثقال بلزوني إلى المحروسة، بعد أن أقنعه الأخير بأنه اخترع ساقية تؤدي إلى ثورة زراعية لأنها تعتمد على ثور واحد! و عندما تأخر وصول الخامات اللازمة لصنع الساقية، وجد بلزوني نفسه متعطلاً عن العمل فترة طويلة، فشارك في بعض الرحلات إلى الأهرام و سقارة، حيث شاهد للمرة الأولي في حياته مومياء فرعونية لطائر حملها أحد الأدلاء من الأعراب وهي تتفتت بين يديه بمجرد أن أخرجها من جرة قديمة. ومنذ هذه اللحظة سيكون لبلزوني شأن كبير في كل ما يتعلق بالآثار المصرية منذ عام ١٨١٦ تقريبًا. أما اختراع الساقية التي يجرها ثور واحد ليؤدي استخدمها إلى ثورة

زراعية كما أقنع أمير البحر، فقد أمكن تصنيعها خلال أربعة شهور، و جربت بالفعل أمام الباشا الذي أبدي رضاءه عنها، إلا أنها سرعان ما خربت بسبب خطأ هيدورليكي لم يستطع بلزوني اكتشافه.. وهكذا تبخرت آماله في مواصلة العمل كخبير ري".

استمرت الأوراق مشيرة إلى أن بلزوني بعد فشله، رافق المستشرق السويسري بورخات إلى أبي سمبل، وكان الأخير أول أوربي يصل إلى هذه المنطقة في العصر الحديث.. و مضيت أقرأ: "وبدا بلزوني منذ اللحظة نشاطاً جديدًا يحتاج أكثر ما يحتاج إلى قوته البدنية، وهو نقل قطع الآثار – خصوصًا المصنوعة من الحجر- إلى المحروسة، و من المحروسة يتم تصريفها إلى موانئ ومدن أوربا. ومن بين أهم القطع التي سرقها أو استولي عليها بلزوني في زيارته الأولي مع سارة زوجته رأس ممنون الصغير، الذي استطاع أن ينقله من أبي سمبل، ووصل في جولته إلى أعالي النوبة، وحمل في طريقه مسلة خطر له أنها جديرة بالعرض في لندن طولها ٢٢ قدمًا و عرضها قدمان، وينجح في الحصول على موافقة أغا أسوان على نقل المسلة باسم ممثل بريطانيا وقنصلها العام. و بجانب المسلة كانت هناك صناديق خشبية ضخمة محملة بأنفس الآثار المصنوعة من الذهب و المجوهرات، فضلاً عن كمية لا بأس بها من المومياوات، بعضها كان لأطفال ، و كانت قد راجت في أوربا في ذلك الوقت موضة شراء مومياء لطفل مصري مات منذ خمسة آلاف عام، و الاحتفاظ به في قصور النبلاء و الأثرياء كأحد أنفس

الممتلكات و أندرها، وهكذا قُدّر لبلزوني أن يقتحم العالم الغامض لتجار الآثار من أوسع أبوابه.

وفي أول بعثة كشفية إلى الصعيد و النوبة، وجد بلزوني نفسه على رأسها. أولي اهتمامه للبرديات، واستطاع دخول حجرات الدفن و الكهوف الضيقة الواقعة خلف القرنة، فوجدها تثير كمية هائلة من الغبار ورائحة المومياوات، وهو ما وصفه قائلاً: فتشت عن مكان أستريح فيه، فوقعت فوق مومياء مصرية تكسرت تحتي كما يتكسر الصندوق، وتحسست بيدي بحثاً عن مكان مناسب، فلم أجد و غطست تمامًا بين المومياوات المفتتة و العظام و الحصر و الصناديق الخشبية.

جمع بلزوني ما يملأ سفينة كبيرة، وكان ضمن الغنيمة تمثال رائع الجمال للربة حتحور، مع آلهة أخرى عثر عليها في معبد منتوحتب الصغير الواقع بالركن الشمالي الغربي من الكرنك. تلك هي أولي غزوات بلزوني، ولم يستعمل خلالها قوته البدنية الخارقة كرافع أثقال و مؤدي نمر بارعة على مسارح لندن و فاليتا فقط، بل استعمل أيضًا عقله كإيطالي شاطر و نقوده في عقد صلات دائمة مع الأغوات و الكواشف في جنوب مصر.

عاد مرة ثانية و معه فرمانات شخصية من الباشا، وبصحبة زوجته سارة أيضًا، ليكتشف وأحدًا من أعظم كشوفه على الإطلاق في أبي سمبل، عندما توصل إلى باب قاعة فسيحة من قاعات الأعمدة، يتوسطها ممر على

جانبيه ثمانية تماثيل لرمسيس الثاني، و يليها غرفة أصغر تفضي إلى غرفة انتظار ثم محراب. أما ضوء الشمس المتسلل، فقد سُلط على تماثيل الآلهة الجالسة في قدس الأقداس وهي آمون رع وحور أختي و بتاح ثم رمسيس الثاني نفسه. أدارت رأسه مشاهد المعارك المرسومة على الجدران في القاعة الكبري، حيث بدا رمسيس الثاني يقاتل الحيثيين في معركة قادش. لم يعلم أحد شيئًا مطلقاً عن هذه الرحلة . و لم تخرج من مصر على وجه التأكيد كل الغنائم التي حصل عليها بلزوني من معبد أبي سمبل مثل مومياوات الأميرات و الأطفال و الوزراء ، إلى جانب أطنان لا تقدر بثمن من التحف و الذهب و الأحجار الكريمة، فبلزوني نفسه اختفي في رحلة العودة على السفينة النيلية، و الاحتمال الأرجح أن سفينته غرقت أو اصطدمت بالصخور عند فيلة، ولم يبق منه إلا اسمه الذي أطلق على أحد أجنحة المتحف البريطاني. و المهم الآن هو خطة البحث التي وضعت و ينبغي تنفيذها بكل دقة للعثور على كنوز رمسيس الثاني أحد أعظم ملوك مصر وصاحب أكبر إمبراطورية في العالم القديم. لذلك يجب البحث من البداية، أي من الموقع القديم للمعبد الذي نقل بعد بناء السد العالي و غرق المنطقة بكاملها. و لما كانت متاحف العالم و تجار الآثار لا يملكون هذه الكنوز بالتحديد، فالأمر المؤكد أنها لم تخرج من مصر.

لا أدري ما الذي نبهني في اللحظة المناسبة ، فطويت ألف ليلة و تطلعت إليه. بدا اللواء رياض مسناً، ولم تكن لحيته الكثة التي غلب بياضها سوادها متناسبة مع جسمه

المدكوك الذي كان يحاول فرده وهو يتوجه نحوي. عاجلني بصوت عال:

".. ما حكاية ألف ليلة معك؟... لا تكف عن تصفحها.. يا عم أنت حفظتها..".

رفعت عيني إليه ، ثم أمسكت بالكتاب مرة ثانية بعد أن أغلقته. قلت:

"هل لديك حل آخر يا سيادة اللواء؟.. أتسلي.. عندك مانع؟..".

وفتحت الكتاب ، إلا أنني كنت حريصًا على إخفاء أوراق البروفيسور، و دفنت عيني فيه متأهباً لأي حركة مفاجئة من اللواء. و عندما استدار عائداً إلى فرشته، كنت أنا قد وصلت إلى أقصى ما يمكنني احتماله، وبدا كأن الدوار هذه المرة أقوي من كل مرة وهو يقبل على مهل و يجعل الأرض تهتز حولي. أهي فخ آخر هذه الأوراق؟.. نعم.. فخ آخر. لماذا دوّن البروفيسور هذه التقارير؟ و أيا كان من دوّنها ، فإن مجرد وجودها في حوزة البروفيسور يثير الكثير من الريبة. هل وقعت في قبضة عصابة دولية لتهريب الآثار؟ أنا لم أهرّب آثاراً.. أنا مجرد موظف كان في طريقه لتنفيذ قرار نقله بناء على طلبه. و إذا كان البروفيسور متورطاً – كما يبدو- مع إحدي العصابات، فإن واجبي هو الإبلاغ عنه حماية لآثارنا القومية النادرة، و التي تعد مصدر دخل سياحي لا تستغني عنه البلاد، إما أن يتم تهريب البروفيسور هكذا أمام عيوننا، وتركنا في هذا العنبر الكئيب فهو ما لا يمكن السكوت عليه.

يجب على السطات من بوليس و هيئات رقابة و مخابرات و أمن قومي وأمن دولة.. و غيرها عشرات الأجهزة الواضحة و الغامضة أن تهتم بالمؤامرة التي تتعرض لها البلاد، و إلا فهي ضالعة فيها .. نعم فالإمبراطور الذي اسمه ديقيوس، وهو آخر إمبراطور وصلت خراطيشه مدّونة بالهيروغليفية تسعي عصابة مافيا دولية لتهريب الآثار وأحد أعضائها بلا شك الخواجة نيلز بارفود ، تسعي لتهريب الأحجار المدون عليها خراطيشه ، والتي تم انتزاعها من على جدران معبد إسنا. ليس هذا فقط، بل إن هناك حمولة سفينة كبيرة سرقها رافع الأثقال و الممثل بلزوني تضم مومياوات و تحفاً و أحجارًا كريمة و مشغولات ذهبية، تبحث عنها العصابة نفسها، وربما كانت في طريقها الآن إلى خارج البلاد، خصوصًا بعد تهريب البروفيسور بارفود....

أي كابوس هذا؟..

في كل الأحوال ، ليس أمامي سوي الهرب، ولا حل سواه.

أكاد أطير و أنا أقطع الممر متجهاً إلى كريم لأعلن له الخبر، و لنتفق على تحديد موعد فوري لفرارنا، فقد حدثت المعجزة، و تمكنت لتوي من نزع قضيب نافذة المخزن إياه، والذي طالما داعبني حلم نزعه، حتي فوجئت به يخرج في يدي.

هل سنتمكن أخيرًا من الفرار من هذا الجحيم؟..

كنا في أول الليل، أو ما يخيل إلينا أنه الليل، فبعد أن طال بنا المقام، لم نعد نفرق بين الليل و النهار، فقط كانت هناك فترة تمتد عدة ساعات يغيب فيها الشيخ مصطفي وامرأته خلف ساتر ركنهما، وتعودنا على أن نتعامل معه باعتباره الليل.. غير أنني عندما تقدمت قليلاً ، لم أصدق عيني، فقد كان اللواء رياض و كريم مشتبكين بالفعل، و كل منهما يوسع الآخر ضرباً .... كانت هيئتهما بائسة، فكلاهما كالشبح يبدو عليهما التعب والإرهاق و نصب الأيام الطويلة التي قضيناها داخل السجن. لم أصدق عيني وركضت نحوهما. نالني من رياض لكمتين، إلا أنني استطعت أن أفصل بينهما مع ذلك ، مشيت باللواء رياض عدة خطوات في اتجاه فرشته، ثم عدت لكريم أهدئه.. كان ينتفض زاعقاً:

"من أنت حتي تسمح لنفسك بتفتيشي؟..".

"أنا رأيت بعيني الأوراق السرية التي كنت تخفيها داخل الكتاب..".

"أي كتاب؟..".

كانا يقفان متباعدين ، و كل منهما ينتفض بالقرب من فرشته و يزعقان، ثم واجهني كريم محتداً:

"الباشا.. المحترم... اللواء رياض ضبطته يتسلل الآن إلى فراشي بعد أن غلبني النوم..".

أجابه رياض:

"قلت لكما من قبل أنني لن أسمح بقيام أحزاب و شلل داخل العنبر، و أنت و صاحبك تخفيان أوراقًا سرية راقبتك و أنت تقرؤها داخل كتاب ألف ليلة..".

خطوت خطوتين نحوه قائلاً:

"تجاوزت حدودك يا سيادة اللواء.. كيف تسمح لنفسك بهذا؟..".

أجابني على الفور:

"لا أريد أحزابًا و شللاً.. و من حقي قراءة الأوراق السرية التي تتبادلانها ما دمنا معًا في هذا الجُحر..".

توقفت قليلاً أنظر إليه ملياً، ثم قلت:

"إهدأ يا سيادة اللواء.. هذه تهيؤات ... كلنا مرهقون بعد أن طال حبسنا.. ليست هناك أوراق سرية و لا شلل و لا أحزاب.. عيب أن تقول هذا الكلام و أنت لواء...:".

و استدرت عائداً إلى كريم. ربت على كتفه و سرت به إلى فرشته ، ثم رجعت إلى رياض. كانت لحيته قد طالت ووصلت إلى صدره. وكان يحاول أن يتصالب وهو يقاوم ارتجاف بدنه المدكوك. لم يعد يغير التريننج سوت الذي كان حريصًا على أن يستخدمه أثناء نومه أو في طابور الرياضة الصباحي فقط، وبدا مسناً، و تفوح من جسمه و شعره رائحة قابضة، وهو لذي كان معروفاً بحرصه على حماه اليومي و غسيله المنتظم لملابسه.

همس لي كاظماً غيظه:

"ليس الأوراق السرية التي تتبادلانها فقط يا أستاذ... لقد فقدت أوراقاً لي أيضًا..".

ربت على كتفه و صحبته إلى فرشته قائلاً:

"اهدأ الآن و سأبحث أنا معك عن الأوراق التي فقدتها و سنجدها لأنك لا تترك حقيبتك أبداً.. لا تقلق.. أنت أكبرنا مقاماً الآن، و سوف يأتي إليك كريم ليعتذر.. أتعهد لك بذلك..".

كنا قد وصلنا إلى فرشته، فجذب نفسه مبتعداً وهو يزفر قائلاً:

"على العموم أنا لن أسكت على هذا .. و سينال كريم جزاءه و يعرف معني ما فعله مع لواء في الدولة..".

و بينما كنت أستدير عائداً، لمحت كريم مضطجعاً على فرشته وقد أشعل سيجارة، فمررت عليه أولاً ورفعت صوتي و أنا أغمز له بعيني:

"عيب يا كريم.. مهما كان سيادة اللواء لـه مركزه... عيب و لابد أن تعتذر له ..".

ثم أضفت هامسًا و أنا أغادره:

"سنهرب في أقرب فرصة.. وجدت منفذاً لهروبنا.. اسكت الآن و اتركني أتصرف أنا...".

تغير وجه كريم في لحظة، وكاد ينهض ليلحق بي، لكنني أوقفته بنظرة من عيني...

في طريقي إلى فرشتي هنّأت نفسي على مكري و حيلتي، و تمددت أحدق إلى سقف العنبر. لم أنجح فقط في الوصول إلى منفذ لهروبنا ، بل نجحت أيضًا في خداع اللواء رياض، وهو العقبة الرئيسية أمامنا. .. وهل نجحت فعلاً في خداعه؟ أظن ذلك، فللمرة الأولي أراه متردداً غير حاسم. اهتز حقيقة، وداخله الشك حول الأوراق التي رآنا نتبادلها أنا وكريم.

أما الأوراق ذاتها، فقد أكدت لي تورط البروفيسور ووجود عصابة دولية لتهريب آثار البلاد. و إلى جانب هذه الأوراق و التقارير المكتوبة بالعربية ، كانت هناك تقارير أخرى مكتوبة بالإنجليزية، إلا أنني فشلت في فك رموزها بسبب ضعف إلمامي بها، وإن كان كريم قد أخبرني بمضمونها. كان أحدها، وهو ما لفت انتباه كريم بشدة يتحدث عن الدور الذي لعبه عالما آثار فرنسيان هما ماريت باشا و خليفته ماسبيرو، و كلاهما عمل مديرا لمتحف بولاق للآثار. و كان هناك تقرير آخر عن كمية

المومياوات التي خرجت من مصر و تقدر بعشرات الآلاف ، فأوربا كانت تعتقد أن بقايا هذه المومياوات تعالج أشد الأمراض فتكاً و تمنح طاقة جنسية هائلة و تطيل الأعمار، بل إن الملوك كانوا يدفعون مبالغ هائلة لشراء المومياوات وإضافة مسحوقها بعد صحنها إلى طعامهم و شرابهم...

أي كابوس هذا ؟ .. منذ اللحظة الأولي التي رأيت فيها البروفيسور، و أنا أشعر أنه أكثر من في العنبر إثارة للشكوك، على الرغم من أن أغلب ساعات الأسبوع الذي قضيته في العنبر قبل تهريبه، كان خلاله منزوياً يقضي أغلب يومه في الحمام يجري اتصالاته ونحن غافلون عنه. لكنني يجب أن أعترف مع هذا أن تهريبه على النحو الذي جري، كان دافعاً لنا – أنا وكريم – لمضاعفة جهودنا بحثاً عن منفذ، و إذا كان كريم قد نجح في الوصول لتلك الأوراق ، فقد نجحت أنا في الوصول إلى منفذ لهروبنا بمجرد أن نفلت من رقابة اللواء رياض.

عدت أقول لنفسي: حتي لو نجحت خطة الهرب، فعلى أن أفكر جيدًا قبل الإقدام على إبلاغ الشرطة عن عصابة البروفيسور، بل إن ابتعادي عن الشرطة تمامًا يجب أن يكون أحد أهدافي، فما أزال مسئولاً عن تلك الجريمة لتي لم أرتكبها، جريمة ذبح الرجل إياه في حوض الاستحمام..

أي كابوس هذا؟.

إذا نجحت خطة هروبنا – أنا و كريم – من العنبر، فهناك مشكلة الخروج من مبني المول ذاته . وإذا خرجت من

المول، هل أعود إلى عملي؟ بالطبع لابد أن أعود... ليست القضية هنا، بل في الإجراءات الواجب على اتباعها للعودة . لا شك أن العودة ستكون صعبة ، فقد تغيبت حتي الآن أكثر من خمسة عشر يومًا متصلة، وهو ما يعني أنني فصلت الآن، و ليس أمامي إلا الحصول على شهادات طبية تفيد بأنني تغيبت لأسباب مرضية.

أما السجن الذي وجدت نفسي أحد نزلائه، فما يزال عصيًا على التصديق و يبعث على الجنون. هل عاقبوني هذا العقاب القاسي لمجرد أن على حسابًا لملهي القطين؟ وما أدراك أن عقابهم كان بسبب عدم تسديد الحساب؟ ألم يسألك ، أحد الرجلين اللذين ألقيا القبض عليك قبل أن ينهالا بالضرب: أين كنت الليلة الماضية؟

لو استطعنا الهرب الليلة.. لو ضمنت نوم اللواء رياض.. كيف غاب عن عقلي ما ذكره منذ لحظات ؟ ألم يقل أنه فقد أوراقًا؟ أي أوراق فقدها؟ ومن الذي أخذها أو سرقها؟ نعم.. كان يبدو مهزوزًا تمامًا و خائفًا وهو يقول لي أنه فقد بعض أوراقه. لم يقل لي كريم أنه فعلها. صحيح أننا – كريم و أنا – تمنينا تفتيشه، لكنه كان يصطحب معه حقيبته الصغيرة البنية اللون في كل مكان.

ليس من المعقول أن يكون الشيخ مصطفي هو من فعلها. إنه يكره رياض مثلما نكرهه أنا و كريم، لكن أن يتجاسر إلى هذا الحد و يسرق أوراق رياض من حقيبته فهو ما أظن أنه لا يجرؤ عليه...

و إذا كان هو من فعلها، فعلى أن أعترف بغفلتي للمرة الثانية بعد حادث البروفيسور بارفود.

لكن ما أنا متأكد منه أن اللواء رياض بدأ يفقد الكثير من تماسكه وانضباطه. بدأ يتغير منذ هروب البورفيسور تقريبًا. صحيح أنه ابتهج بشدة في أول الأمر، واعتبر هروبه خطوة للأمام و عارض نوبات الهيستريا التي أصابتنا أنا و الشيخ مصطفي، و اتهمنا بأننا السبب في حملة التجويع السابق فرضها علينا يومين متتاليين.. وفجأة أصبح مسناً، و الأهم هو ما أصاب روحه التي كانت تتميز بالعدوانية الخفية والانتباه الدائم حتي لنسمة الهواء. فَقَدَ مبادرته بالهجوم و سيطرته على مشاعره، إلا أنه كان متمسكًا حتي الآن بعدم الخوض في سيرة أصحاب الملهي ، و تلويحه بأن من يحبسنا تنظيم شيوعي أو إخواني.

وفي الأيام الأخيرة ازدادت من جسمه و شعره تلك الرائح النتنة، وحتي رائحة العنبر أصبحت لا تطاق. وكنا توقفنا عن التقسيم الذي ارتضيناه فيما بيننا، بأن يتولي واحد منا تنظيف العنبر يومًا،و في نهاية الأسبوع يلف كل منا فرشته و نرش أرضية العنبر بالماء، خصوصًا بعد تهريب البروفيسور. كان هذا الإجراء على بساطته يجعل المكان نظيفاً محتملاً. أما الشيخ مصطفي و امرأته، فقد تكفلت الأخيرة بأن يكون مكانهما بهياً يشع نظافة على الدوام... وهكذا احتفظنا بعنبرنا ممكن الاحتمال، غير أننا في الأسبوع الأخير بدأنا في التراخي، بما في ذلك اللواء رياض الذي كان الوحيد القادر على ضبطنا و إعادتنا إلى

الصواب. ازداد المكان قذارة دون أن يهتم أحد منا، و بدأت رائحة مكتومة تخيم على العنبر، ومع ذلك أمكنني أن أميز رائحة اللواء العفنة.

أظن العقبة الرئيسية أمام فرارنا قد ضعفت و ارتخت قبضتها، وعلى أن أنتهز الفرصة و أطرق الحديد وهو ساخن. ما إن ينام اللواء رياض حتي أنهض على الفور مصطحبًا كريم إلى المخزن. هل أنهض الآن؟ الأفضل أن أنتظر قليلاً حتي أتأكد من استغراقه في النوم.

عدت أحدق إلى البوابة الحديدية بلونها البترولي الداكن، و أسترق السمع لأنفاس اللواء رياض مترقبًا أن يروح في النوم. أغمضت عيني و أنا أشعر أن ذلك الكابوس الرهيب في طريقه للنهاية، و خفق قلبي منتظراً اللحظات الأخيرة.

لا أدري كيف استسلمت لتلك الأصوات التي بدت بعيدة و أنا أسعي لتبينها، حتي اكتشفت أنها أصوات خيول تصهل و تركض ضاربة الأرض بحوافرها، ثم بدا لي و كأنني في حفر الباطن أنظر إلى وجوه جنود قوات التحالف الحمراء و التي كانت أول من رأيت في المطار. كنت خائفاً لا أعرف دوري في المعركة المقبلة و حجم الخطر الذي أتعرض له. نعم. تدربت على إبطال مفعول الألغام، لكنني كنت خائفاً. ثم بدا لي أن القتال اندلع فجأة، وحل سكون

مفاجئ ضاعف نم خوفي. وعندما سمعت صوتها تقول:

"اتبعني..".

لم أجد في نفسي القدرة على النهوض على الرغم من أن رغبتي فيها قد استيقظت بقوة.

عندما فتحت عيني نظرت ناحية كريم فوجدته نائمًا ما يزال ، أما فرشة اللواء رياض الملاصقة للجدار المواجه فكانت خالية. ها أنا قد غلبني النوم، بينما استيقظ الجميع الآن، ولابد أن رياض ذهب إلى دورة المياه . تناهي إلى سمعي أصوات المشاحنات الصباحية المعتادة بين الشيخ مصطفي وامرأته و التي ازدادت في الفترة الأخيرة، إلا أنها هذه المرة بدت أكثر صخبًا و صوت المرأة كان عالياً.

قلت لنفسي: لقد غلبني النوم، أنا الذي كنت قد أعددت لهروبنا في الليلة الماضية.. وكريم أيضًا أظن أن النوم غلبه مثلي. على أية حال، سنتأخر في الهروب يومًا آخر، ورياض – كعادته – ألن ينام قبل حلول الليل؟

تذكرت المعركة التي شهدتها بين رياض و كريم بالأمس. هل أنجح في السيطرة على الموقف؟ على أن انتهز الفرصة أثناء غياب رياض الآن، وأوقظ كريم لنتفق سوياً على التفاصيل، بل و سأطلب منه أن يعتذر لرياض حتي نفوّت عليه أية فرصة. الغريب أن كريم الذي كان متحمسًا بشدة حتي أنني لاحظت تغير لون وجهه، بمجرد أن أخبرته أنني وجدت منفذًا لهروبنا، ها هو ما يزال نائمًا.

حاولت النهوض، لكن عدة عطسات متوالية رجت رأسي، و شعرت بالبرودة، ربما للمرة الأولي منذ حللت هنا، فدرجة الحرارة ثابتة طوال الوقت. لممت جسمي وفردته

غير أن الجو كان بارداً بالفعل، فقمت بسرعة معتمداً على يدي و قدمي. لم أجد إلا الشيخ مصطفي جالساً هناك أمام خيمته، فاتجهت إليه رافعاً صوتي:

"صباح الخير يا مولانا.. ماذا جري؟.. الجو بارد .. بارد جدًا .. أليس كذلك..".

لم يستطع أن يجيبني فقد هاجمه السعال والعطس، غير أن صوت امرأته جاء من خلف الستارة:

"التكييف يا أستاذ.. أولاد الحرم لعبوا في التكييف لنموت من البرد..".

وأضاف الشيخ مصطفي بعد أن تمخط بوهن ثم بصق بجواره:

"هذه المرة سنموت فعلاً.. تعال معي.. أنا سأكلمهم من خلف البوابة. ماذا يريدون بالضبط؟.. ما الذي فعلناه لهم؟..".

استطاع النهوض بصعوبة، إلا أن امرأته عطست بصوت عال، و بدت عطستها أنثوية فعلاً و مختلفة عن عطسة كل منا، تتردد في أرجاء العنبر. نظر لي الشيخ مصطفي بطرف عينه، ثم استدار و أدخل رأسه من فتحة الستارة. غاب قليلاً، وعاد ليتجه نحو البوابة بثبات.. مضيت خلفه قائلاً:

"انتظر يا شيخ مصطفي .. انتظر حتي نري كريم و اللواء رياض ونعرف رأيهما..".

"على كيفك.. إذا أردت أن تأتي معي الآن .. أهلاً و سهلاً"

و تركني مواصلاً طريقه، وجريت خلفه ووقفنا أمام البوابة مباشرة فزعق:

"بسم الله الرحمن الرحيم.. يا أولي الأمر نحن مستعدون لتنفيذ كل ما تطلبونه منا.. افصلوا التكييف وسوف ننفذ أي شيء تطلبونه منا...".

توقف قليلاً يلتقط أنفاسه، فوجدتني أقاطعه هاتفاً أنا الآخر:

"نحن لن نسكت على هذه الأساليب القذرة.. ثم إن معنا لواء.. أنتم تعرفونه.. حاكمونا... سأسدد ما على من حساب وفوقه الغرامة التي تحددونها.."

و انتبهت إلى أننا نقف أمام البوابة المغلقة نتحدث إليها.

تملكتني نوبة ضحك حاولت أن أكبح جماحها دون جدوي، إلا أن الشيخ مصطفي – لحسن الحظ – كان منخرطاً في خطبته أمام البوابة وواصل:

"اعتبرونا أسري لديكم وأعطونا حقوقنا .. حقوق الأسري الشرعية...".

و أكملت امرأته التي ظهرت فجأة مرتدية نقابها:

"نعم نحن لا نطلب أكثر من حقوقنا الشرعية... ألستم مسلمين؟..".

قلت لنفسي: الآن أكثر من أي وقت مضي لابد من الهروب سأوقظ كريم أولاً ثم نشرع في الهرب على الفور. لا وقت لخطط و لا انتظار، بل ننتهز فرصة هذا الشغب و نقفز من النافذة التي اكتشفتها...

استدرت متجهًا إلى فرشته صائحًا:

"يا كريم.. يا كريم.. ناموسيتك كحلي؟.."

لم يرد رغم اقترابي منه و صياحي. انحنيت أرفع عنه الغطاء ، فرأيت جبهته مشجوجة و الدم يغطي نصف وجهه. كان منظره فظيعًا، فواصلت جعيري مختنقًا... لم أجد ما أقوله ووجدتني أصرخ و أصرخ:

"كريم ... يا كريم..".

كان وجهه فزعًا وعينه التي يغطيها الدم مفتوحة تحدق برعب. عدت أقفز هنا وهناك لا أعرف ماذا أفعل.. صرخت أخيرًا عندما داخلني هذا الهاجس:

"يا رياض يا ابن الكلب. أين أنت يا رياض يا ابن الكلب...".

اندفعت راكضًا و أنا أصيح:

"سأقتلك يا رياض الكلب.. سأهشم رأسك يا رياض الكلب... لن تفلت مني يا رياض الكلب..".

فتحت كل المراحيض ، وفتشت في كل الأركان، بل وصعدت فوق التواليتات أنظر هنا و هناك دون جدوي مواصلاً جعيري:

"قتلته يا رياض يا ابن الكلب.. قتلت كريم يا ابن الكلب..".

لم أكن قادراً على التوقف ، فعدت أركض متجهًا إلى الممر، ووقفت أحدق في المخزن الواسع ، وقد تناثرت بقايا المانيكانات والآلات و الكراتين و الصناديق في كل مكان. لم يظهر له أي أثر. ما الحكاية؟ هل هرب؟ جريت بأقصى قوتي نحو النافذة العرضية و نظرت جيدًا. خُيّل لي أن العارضة الحديدية ما تزال في مكانها كما تركتها. هل هربوه أيضًا؟ مثلما سبق لهم أن هربوا الخواجة؟ هل قتل رياض كريم وهربوه؟

رفعت عقيرتي بأقصى ما يمكنني و أنا أجري عائداً إلى العنبر... شتمت الملهي و أصحابه وشراميطه و مديره و زبائنه و الحكومة و الدولة و أعلى سلطة في البلد، بل وجعلت أخبط البوابة بقدمي ويد دون جدوي..

كان الشيخ مصطفي وامرأته يقعيان تقريبا بجوار جثمان كريم يخفيانه عني و يرتجفان من البرودة التي كانت تزداد. رأيت نهاية الكابوس تبدو واضحة أمامي: هرّبوا رياض الكلب و البروفيسور الأمريكاني و قتلوا كريم، وها هم في طريقهم لقتلي وقتل الشيخ مصطفي وامرأته. اكتشفت أننا نبرطم و نعوي تقريبًا معًا و دون اتفاق. وعندما استدارت لي امرأة الشيخ مصطفي وجدتها بلا نقاب تبكي، و ما لبثت أن رفعت عقيرتها بالصراخ لأنني فقدت صوابي ورميت نفسي على كريم، فتصدت لي صارخة وهي تحتضنني:

"لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله .. حرام عليك..".

أما الشيخ مصطفي فكان مقعياً بجوار كريم لا يكاد يستطيع النهوض. أحسست بجسمها للمرة الأولي يعترضني ووجهها مبللاً بالدموع و هي تهمس في أذني:

"لا إله إلا الله يا اخويا ... لا إله إلا الله..".

في لحظة خاطفة عرفت شفتاي طريقهما إلى شفتيها، و نسمت أنفاسها الحارة و أنا أضغط جسمي على جسمها شاعراً بثدييها في صدري. وعندما أحست بانتصابي دفعت بجسمها ناحيتي بقوة واستقبلتني. أمسك كل من بكتفي الآخر و تساندنا واقفين. كان كل منا يمسك الآخر بأقصى ما يستطيع ونحن نتدافع و نتلاصق و نغمغم و نتأوه ... لا أدري كيف انفصلنا في آخر الأمر. ورحت أفيق و أبص حولي فوجدت الشيخ مصطفي ما يزال مقعياً بجوار جثمان كريم و ظهره ناحيتنا. و لما استدار هو الآخر يبحث عني، كنا قد انفصلنا بالفعل، غير أنني لم أكن قد تخلصت من انتصابي بعد.

أفقت تقريبًا مدركاً أن كريم قُتل. نعم ضربه رياض ابن الكلب على جبهته حتي أسلم الروح. تماسكت قليلاً و أقعيت بجور الشيخ مصطفي أحاول منع نفسي من النظر إلى كريم المسجي أمامنا. بعد برهة قصيرة تبينت أن الشيخ مصطفي كان مستغرقا في ترتيل القرآن مغمضاً عينيه، و ما لبث أن التفت لي ورفع عينه المخضلتين بالدموع قائلاً:

"البقية في حياتك يا ابني... البقية في حياتك .. كل نفس ذائقة الموت و لكن ليس بهذه الطريقة و لا بهذا الشكل أبداً.. حرام.. حرام... ربك على الظالم..".

مد ذراعه وربت على كتفي فشعرت بها متثاقلة من البرودة التي كانت ما تزال تتسلل بطيئة. انحني على كريم وهو يبسمل و يحوقل و أغمض عينه السليمة التي كانت تحدق نحونا مفتوحة. خلفي كنت أشعر بامرأة الشيخ مصطفي دون أن أراها تبكي بصوت مسموع تنهنه. وكان كل ذلك الذي حدث بيني و بينها لم يستغرق سوي أقل من لحظة، لكن كريم المسجي أمامي جعلني مسلوباً تمامًا. لكم أرغب الآن في أن أرتمي على صدرها وأبكي وهي تربت على بدني و تتحسسني. لو تركت نفسي سأعود للصراخ بأعلى صوتي.. هرب رياض الكلب وها هم بدأوا في قتلنا جوعاً وبرداً.

تحولت عن كريم، و استدرت لأواجه امرأة الشيخ مصطفي . كانت ترتجف من البرد و عطست عطستين متواليتين رجتا جسمها رجًا. كنت أتعرف على ملامحها الشاحبة قريبة مني وبلا نقاب. منحها ارتجافها و ابترادها مظهراً متهاوياً حتي أنها بدت على وشك الوقوع على الأرض و دموعها تغرق وجهها و تنهنه بصوت خافت.

كان منظرنا نحن الثلاثة هواناً في هوان. ليس هناك هوان أكثر من هذا: أن يقتلوا أحدنا بينما ننتظر نحن موتنا الوشيك.

لا أدري كيف قفزت الفكرة إلى ذهني. تذكرت أولاً أوراق البروفيسور التي وجدها كريم بين أسلاك الكهرباء، و أنا هاو قديم للأجهزة الكهربائية و الكهرباء... لماذا لا أحاول فصل التيار الكهربائي من هناك. سيغرق العنبر في الظلام، إلا أن جهاز التكييف – في الوقت نفسه – سيتوقف عن إطلاق سموم برده.

رفعت عيني و نظرت نحوهما برهة قصيرة ثم قلت:

"جائتني فكرة.. لو تحققت سنبطل جهاز الموت البطيء..".

اندفعت راكضاً إلى الحمام. وفي أقل من دقيقة كنت قد فصلت الكهرباء بالمصادفة، لأنني لمستها في البداية، وصعقت صعقة خفيفة، فأعدت المحاولة الثانية التي نجحت و سمعت صرخة مشتركة للشيخ مصطفي و امرأته تأتي من العنبر. لم يكن الظلام دامسًا، فما تزال هناك بقية من ضوء تأتي من ناحية المخزن الذي لم يكن مضاءً في حد ذاته، بل بسبب النوافذ العرضية على جداره. فكرت بسرعة و أنا أسمع وقع خطوات الشيخ مصطفي وامرأته يتجهان إلى الحمام: ماذا لو انتهزت فرصة الظلام و نفذت خطتي التي كنت أعددتها لهروبنا .. كريم و أنا؟

حسمت ترددي في لحظة و جريت قاطعًا الممر بين أشباح المانيكان و البقايا المعدنية و البلاستيكية و التراب، حتي تسلقت البالة. وقبل أن أقفز قفزتي الأخيرة ، استدرت منتظرًا ظهورهما ليعرفا الطريق الذي سلكته فقد آن أوان

الفراق و لا مفر من الهرب... كانا قد اكتشفا طريقي و تبعاني، فرفعت يدي الاثنتين معًا مشيرًا لامرأة الشيخ مصطفي، فقد كان هو عاجزًا عن الرؤية فيما يبدو في العتمة الخفيفة هناك في أول المخزن، أما هي فرفعت ذراعها من بعيد تلوح لي.. فكرت بسرعة: أنني الآن على وشك مغادرة هذا كله و تركه ورائي.. صحيح أن ما جري لكريم سيظل ماثلاً لن أستطيع أن تخلص منه، لكن ما الذي يمكنني فعله الآن؟ كان من الممكن أن أكون أنا المقتول و ليس كريم. و الشيخ مصطفي كان على وشك الموت لو استمر التيار الكهربائي وكذلك امرأته.

انتظرت قليلاً و أنا واقف على البالة حتي اقتربا، ثم لوحت بيدي لهما مرة ثانية، و حركت القضيب الحديدي على النافذة بسهولة و ألقيت به، ثم قفزت.

أحسست كأن عظامي قد تكسرت لما سقطت في الجانب الآخر على البلاط الصلب. لم أستطع النهوض إلا عندما لمحتها تشير لي في العتمة الخفيفة:

"احمل قفصك و اتبعني..".

تبعتها بالفعل، لكنها غابت عند أول ممر صادفناه.

مضيت أفتش بعيني هنا و هناك .. كانت كل هذا الأضواء المفاجئة تبعث على الدوار حقًا: محلات و مطاعم و مصاعد و سلالم متحركة و ناس يسيرون في كل اتجاه و أضواء كهربائية من كل لون.

لا أصدق نفسي...

هل نجوت حقًا؟

هل أنا حر الآن؟

ولشد ما أدهشني أن حقيبتي كانت في يدي. لاشك أن أوراقي ترقد الآن سليمة داخلها، بجوار نظارة البحر الصغيرة، و تذكرت أوراق البروفيسور، و كذلك الشيخ مصطفي وامرأته.. هل نجحا في الهروب كما نجحت أنا. و انقبضت عندما تذكرت كريم الذي تركته مقتولاً داخل

العنبر و رياض الكلب و الموت الذي كان ينتظرنا لو لم أتمكن من فصل التيار الكهربائي.

توقفت مصعوقًا أمام هذا الذي يطالعني الآن كأنه أنا. كان الشبح الذي أمامي في المرآة هو أنا بلا شك، إلا أن ملابسي كانت بالغة الرثاثة ووجهي باللحية الطويلة و العينين الغائرتين و الشعر الأشعث هو وجهي. انتحيت جانبًا بسرعة، و سويت ملابسي قدر الإمكان و مسدت بيدي على شعري. ضربت بعيني في كل اتجاه.. لماذا يلفت نظري كل هؤلاء البشر الساعين أما صفوف المحلات و راكبي المصاعد و صاعدي و هابطي السلالم الكهربائية و المتسكعين في كل مكان؟ حتي لو اعتبروا أن اللحية النامية قليلاً موضة هذه الأيام، إلا أن ملابسي وهيئتي على وجه العموم، لابد أن تثير الانتباه. لأبحث عن الممرات الخلفية و الأماكن غير المأهولة قدر الإمكان.

رسمت خطة سريعة بدت لي محكمة. على أن أتسلح بعيني صقر و أنف كلب صيد مدرب، فليس من حقي أن أشعر بالنجاة إلا عندما أغادر المول بكامله، بل و أتسلم عملي، فمن السهل أن يكمن لي رجال ملهي القطين عند أن منعطف في داخل هذا المول اللعين. لن يتورعوا عن قتلي مثلما قُتل كريم. على أن انتبه جيدًا و أنظر في كل اتجاه، وفي الوقت نفسه على ألا أدع أحدًا يلاحظ هذا، خصوصًا و أن مراقبي الأمن بملابسهم الزرقاء كانوا متناثرين في كل مكان. المهم الآن أن أحرص على تجنب ملهي القطين، و أبحث عن منفذ آخر يقودني للخارج.

مضي على قرابة العشرين يومًا. ربما سبعة عشر.. كيف مرت ، ولماذا ورطت نفسي في سلسلة الكوارث التي بدأت بتلك الشبيهة بعزة في ملهي القطين حين أخذتني إلى أول فخ نصب لي، وقضيت ليلة مع رجل مذبوح في شقة واحدة، ثم تتابعت الفخاخ، وحتي هذه للحظة ما زالت الفخاخ منصوبة لي. بدا لي بعد فترة أنني أدور حول نفسي، فالمحلات و الممرات و المتسكعون والمتفرجون و الشارون يتكررون بلا انتهاء. عدت أبحث عن منفذ بعيد عن ملهي القطين، و لذلك ركزت انتباهي حتي لا أفاجأ به..

هات قفصك و اتبعني..

أين ذهبت؟..

كانت هذه الأحلام قد انقطعت عني ربما منذ عثر كريم على أوراق البروفيسور، فهي تفوق كل ما قرأته من حكايات ألف ليلة. والأحداث المتلاحقة التي تلت اختفاءه، لم تتح لي الفرصة لأفلت منها و أحلم، وها أنا الآن أشرف على نهاية ذلك الكابوس المتواصل و الفخاخ المتتالية إذا أحسنت التصرف في الدقائق القليلة القادمة. كنت جائعًا أشعر بالدوار و الخواء معًا، لكن على أن أنتبه. تذكرت أن معي في جيب السترة سيجارة وحيدة منذ الليلة الماضية. وجدتها في حالة بائسة تكاد أن تتفتق، فحاولت أن أشعلها و أن أسد مكان القطع بأصابعي. اشتد الدوار للحظات قصيرة، ثم صفا رأسي وفتحت عيني و أغمضتهما، وبدا و كأنني استقبل صباحًا جديدًا.. هل يصبح كل هذا الكابوس

مجرد ذكري عندما أنجح في الخروج؟ هل أعود مرة أخرى إلى حياتي و أذهب إلى عملي و أحصل على مرتبي بحوافزه القليلة وأقرأ ألف ليلة و أحلم بامرأة أتزوجها بدلاً من هذا الدوران الذي لا ينتهي؟

أطاحت بي السيجارة تمامًا واضطررت للاستناد على الحاجز الزجاجي، لكن نظرة واحدة من رجل الأمن كانت كافية لأن أبتعد عن هذا الركن بأكمله. إنها آخر سيجارة على أية حال. كان مفاجأة أن أتذكر الآن أن ثمة أوراقاً نقدية احتفظت بها في جيب السروال.. نعم بعد أن اشتريت نظارة البحر.. ، أو أجبرت على شرائها على الرغم من أنها نظارة طفل، وعلى الرغم أيضًا من أنني لا أعرف العوم. أظن أن النظارة ما تزال في الحقيبة التي أؤرجحها بيدي بكل يسر.

ما يجب أن أحرص عليه هو توجيه عيني في كل اتجاه في الوقت نفسه، كما على أيضًا أن أبدو مثل كل رواد المول: أرسم ملامح التصميم على ملامحي و مستعدًا في كل لحظة على وشك اقتحام أي من المحلات حولي، وإذا أضفت إلى هذا اختيار الممرات غير المأهولة قدر الإمكان، فيمكنني أن أجد طريقي للخارج، مستعيناً بعين صقر و أنف كلب صيد مدرب.

لم يبق إلا القليل..

ليس مهما أن أشغل نفسي بما إذا كنت في الليل أو في النهار غير أنني لو وجدت كشكًا يبيع السجائر أو الصحف ، فسأتوقف عنده و أؤمن سجائري وألقي نظرة سريعة

على الصحيفة، و أواصل طريقي. و تذكرت أنه سبق لي أن كنت مهمومًا على هذا النحو بالبحث عن سجائر و صحيفة، عندما عدت للمول باحثًا عن حقيبتي منذ أكثر من أسبوعين... وهل اشتريت شيئًا يومها؟.. لا أتذكر..

هل أصدق أنني الآن على وشك الخروج من الكابوس الذي دهمني على مدي الأيام الماضية؟

هل غاب إلى الأبد وجه كريم الذي تقاسمت معه كل أسراره و رسمنا معًا خطة الهروب و قرأنا أوراق البروفيسور معًا؟

وماذا فعل الشيخ مصطفي بعد أن اهتديت إلى فصل التيار الكهربائي قبل أن يقتلونا بأجهزة تكييفهم؟ لن أنسي نظرات امرأته الآسرة التي لا أعرف لها اسمًا وهي تحتويني تمامًا قبل أن أقفز إلى الخارج. لم ينظر لي أحد بكل هذا الحنو و العرفان و المحبة. أغلب الظن أنها تبعتني و نجحت في الخروج بالشيخ مصطفي، ثم قفزت خلفه، فهل ألقاهما مرة أخرى في المول؟

و اللواء رياض الكلب.. الجاسوس الذي قتل كريم/. لكم أتمني أن أراه مرة أخرى.. سأقتله بيدي هاتين ، سأخنقه حتي يلفظ أنفاسه أمامي.

و البروفيسور الذي لم يقض معنا سوي أسبوع واحد، وهرّبوه بعدها، هل يجري الآن اتصالاته بالعصابات التي يعمل معها في نهب آثار البلاد، و إلا فما معني الأوراق التي وجدها كريم؟ و الأوراق ذاتها.. أين هي؟ هذا ما لم

أنتبه له من قبل . هل سرقها رياض الكب قبل أن يهرب أو يهرّبوه أيضًا؟

وعندما تذكرت عزة شهقت من المفاجأة ، فقد كانت أمامي بالفعل.

نعم .. هي عزة..

عيناها الواسعتان زادتا اتساعًا، مكحولتان توقفان اندفاعي، أنا الذي همت باحتضانها. كانت تحمل طفلاً على ذراعها، و تتدلي من ذراعها الآخر حقيبة بلاستيكية ملونة و ترتدي "تايير" بلون دم الغزال أحال جرمها إلى كتلة متألقة؟ . كنت أشعر بها قلقة تدير عينيها في كل مكان بأقصى قدر من الهدوء، ثم استدارت كأنها تتفرج على المحل المواجه. فهمت الرسالة ، وأبقيت على مسافة شبه ثابتة بيني و بينها، و هي تتقدم ببطء.

عزة مرة أخرى و في المول و معها طفل.. هذا آخر ما كنت أتوقعه. كانت تبدو هذه المرة كائنًا آخر، امرأة أخرى، أما متحفظة على نحو ما بتاييرها ذي الأكمام الطويلة. أريد أن أحكي لك كل ما جري لي، و أن تحكي لي أيضًا. لم أعد قادراً على الاستمرار في هذه المتاهة، وهذا الطفل الذي تحملينه على كتفك؟ لست مطالباً الآن إلا بان أحافظ على المسافة الفاصلة بيننا حتي تقوديني إلى الخارج. لكن ما هذه الحركة المكتومة التي بدأت تتضح في أرجاء المول.؟ كان الناس ينفضون تدريجياً كما لاحظت ، فهل المول على وشك أن يغلق أبوابه؟ لكن ملهي القطين يسهر بالتأكيد و لا أظن أن المول يغلق أبوابه إلا بعد خروج الساهرين.

بدا و كأنها أسرعت في خطوها، تتأرجح حقيبتها على ذراعها، وتحمل الطفل على الذراع الأخرى، تتابعني بطرف عينها بين الحين و الآخر، فأسرعت وراءها.. ولكن ما حكاية هذا الطفل؟.. إنها ليست عزة إذن... من أين أتت بالطفل؟.. لكنها عزة أيضًا ، ألم نتظر لي بطرف عينها و كأنها تقول:

"اتبعني.."؟

كانت تعرف طريقها الآن و لم تكن تسير كيفما اتفق لتتفرج على المحلات.

عبرت ممرًا ثم ممرًا آخر و اتجهت إلى المصعد، فمضيت وراءها و أنا ألحظ أن انفضاض الناس يزداد. تكدسوا أمام المصاعد و عندما جاء تدافعوا وتزاحموا داخله، فاستدارت و سارت تعرف طريقها و أنا وراءها إلى مصعد آخر تكدس الناس أمامه أيضًا. كانت تتابعني بعينيها لتتأكد أنني وراءها، ونحن نمضي من مصعد إلى مصعد، وكلها تكدس الناس أمامها...

ما الحكاية؟ ولماذا يزداد انفضاض الناس على هذا النحو؟

بدت الحركة في المول مكتومة إلا أنها عنيفة مع هذا، لأن مراقبي الأمن انتشروا في كل مكان، و أخذ صبيان المحلات و أصحابها يدفعون الناس للخروج و الأنوار تتناقص بسرعة، فازداد التوتر و الجري هنا و هناك، إلا أن مراقبي الأمن كانوا يسعون للسيطرة و ينظمون الناس قدر إمكانهم.

وجدنا مصعدًا آخر الأمر، وفهمت إشارتها ولحقت بالمصعد وراءها قبل أن يغلق أبوابه. داخلني الاطمئنان لأن جسمها لامسني ثم استراحت برأسها على كتفي من الخلف، فاستدرت نصف استدارة محاولاً أن أتبين ملامح الطفل على ذارعها، فمدت لي ذراعها بالحقيبة. تناولتها منها و أصبح في يدي حقيبتان.

ما إن فتح المصعد أبوابه حتي سبقتني بتاييرها الذي بلون دم الغزال. كان أنيقاً جدًا وكان جسمها فاتناً بداخله وهي تتحرك بيسر بين المتزاحمين. لاحظت أنها تتأخر حتي سارت بجواري كتفها بكتفي.نظر كل منا للآخر، و ناولتني الطفل قبل أن نعبر البوابة الخارجية . عاد إلى حنوها القديم وذلك المزيج من التسليم و الاعتماد على مع يقينها من استجابتي و تسليمي لها. كانت نظرتنا المتبادلة كافية لأن أطمئن لها. أنت عزة أخيرًا و أنت تعرفين كل شيء و أنا أحتاج لك لتهربي بي. ورائي أشرار كثيرون في ملهي القطين الذي قابلتك فيه من قبل، و أشرار آخرون في العنبر قتلوا صديقي كريم.

لما عبرنا البوابة الخارجية، هالني الشارع و ضوء آخر النهار. ها أنا قد نجحت في الهروب ومعي عزة . هل أرقص و أجري و احتضنها و أقبلها؟ غير أن الناس كانوا يتدافعون في كل اتجاه، و ثمة أصوات بعيدة لطلقات رصاص غامضة.

توقفت ورفعت عيني إليها. كانت خائفة هي أيضًا فتضاعف خوفي و الناس يجرون هنا و هناك.

كنت مطمئناً إليها بالتأكيد، لكنني كنت أريد أيضًا أن أسألها كل الأسئلة دفعة واحدة...

ومن بعيد ، تهادت اللوريات الضخمة تقطع الشارع متجهة إلى الشمال و تحمل كل منها دبابة أو مصفحة رابضة على أرضيتها، و كانت هناك لوريات أخرى تحمل أجزاء من مدافع:

هاون و مضاد للدبابات و مولوتيكا ومضاد للطائرات. رايتها تمضي أمامي لا يفصل بين لوري و آخر إلا أقل من متر، فتوقف العابرون عن محاولتهم اجتياز الشارع و جعلوا يغمغمون نافذي الصبر. و سرعان ما أدركت سر الاختناق الذي أشعر به.. تلك رائحة القنابل المسيلة للدموع أعرفها جيدًا منذ أيام الجامعة، و المشكلة في هذا الطفل الذي أحمله الآن، هل سيستطيع أن يتحمل الرائحة؟

نظرت لي و أمسكتني من ذراعي لنعبر الشارع بعد أن مت اللوريات . كانت خائفة مثلي و أصوات عربات الناس المهتاجين و سيارات الشرطة و الإسعاف و المطافئ تطلق نفيرها و جعيرها و الناس يزدادون هياجاً و صراخاً . جرينا مع الناس.. ذراعها في ذراعي تقودني بين شوارع لم أكن أعرفها . بعد فترة أدركني التعب، ونقلت الطفل إلى ذراعي الآخر وقلت من بين لهاثي:

" أنا خائف على الولد من هذه الرائحة الفظيعة...".

فتحت عينها على اتساعها ورفعت حاجبيها غير مصدقة:

"ولد .. إنها هند ابنتنا.. ما حكايتك... نسيت هند..؟..".

لم يكن ينقصني إلا هذا . واصلت جريي معها وقد قررت ألا أواصل معها الكلام حتي أفهم. أي هند هذه ، ألم نوار ابنتنا التراب من قبل؟ لكن عربات أخرى مكشوفة اندفعت من الشارع المقابل محملة بجنود يرتدون حللاً سوداء وخوذا سوداء بلون ملابسهم ويحملون أسلحة متنوعة في أيديهم، و أخرىن محشورين في لوريات مغلقة يبدون هؤلاء فرق مكافحة الإرهاب الذين أعرف ملابسهم المميزة. كانت عشرات السيارات و اللوريات تكتظ بهم و تمضي في الاتجاه نفسه.

استيقظت البنت – أو الولد لا أعرف – على ذراعي فجأة، شعرت بها تحرك أعضائها ثم تدفع برأسها فنظرت نحوها . كانت تفتح عينيها بصعوبة ووجهها أزرق تقريبًا و انطلقت في البكاء بصوت عال. تلقفتها مني و أعطتني منديلاً و صرخت:

تصرف .. أريده مبلولاً بأي طريقة .. بلّه من أي مكان.. هند ستموت مننا..".

أمسكت بالمنديل حائرا أبص حولي. اهتديت أخيرًا إلى قهوة خالية على الناصية. جريت نحوها وهي ورائي و أمسكت بأول كوب ماء صادفته على المنضدة. كانت المناضد و المقاعد و صواني الشاي و القهوة متناثرة بأكوابها و فناجينها نصف الممتلئة، بينما المقاعد خالية من الجالسين والقهوة بأكملها فارغة خالية تمامًا. بللت المنديل وعصرته وفردته و ناولته لها بسرعة. غطت أنف البنت و فمها وأعادتها لي قائلة:

"لنجـر و نجـر .. سـتموت هنـد .. خـل بالـك .. سـتموت هند..".

لم تكن تبكي ، فقد استبدلت ملامح الهلع التي كانت تلوح على وجهها ، بملامح أخرى فيها التصميم و الثبات على نحو لم أكن أعرفه فيها . واصلنا ركضنا وشاهدت عشرات الناس يحملون جرحاهم و يتدفقون غاضبين من الشارع المواجه. كانوا يصرخون و يزعقون، بينما العربات السوداء المحملة بالجنود المرتدين حللا سوداء و أسلحة سوداء أيضا تحاصرهم من كل اتجاه. كنا – عزة و الطفلة و أنا إذن – في قلب معركة حقيقية، وسرعان ما انفجر صوت الرصاص.

قطعنا الشارع الجانبي، واجتزنا أول باب على الناصية لنحتمي من الرصاص. لم يكن المدخل المعتم خاليا، و كان ثمة رجال و نساء و أطفال يتلاغطون حولنا، إلا أننا على أية حال في مأمن الآن. عندما تعودت عيناي على العتمة، استدرت لأواجه عزة و أحتضنها، فالبنت نامت فما يبدو. شعرت ببدنها يرتجف وهي تسند رأسها على كتفي الأيسر ورحت أضمها لي. بعد قليل بدأ الأطفال في المدخل في الصراخ و البكاء، وبدا و كأن المعركة قد هدأت في الخارج.

سحبتني عزة إلى الشارع مرة أخرى. كانت السيارات السوداء المحملة بالجنود تقطع الشارع الخالي بأقصى سرعتها بعد أن أخلت المنطقة تماما. وحل هدوء إلا من أصوات رصاص بعيدة متقطعة، فعبرنا راكضين إلى ممر

بين بنايتين كبيرتين، و فاجأني الليل قبل أن نغيب داخل شبكة الحواري التي وجدت نفسي فيها، غير أن عزة كانت فيما يبدو تعرف طريقها جيدًا.

و أنا الذي كنت قد ظننت أن الكابوس انتهي، ما هذا الذي أجدني فيه؟ فخ آخر إلا أنني أحمل طفلة على كتفي هذه المرة. كانت الحواري المعتمة خالية و أبواب البيوت مغلقة، فواصلنا الجري حتي خرجنا إلى الخلاء، وفي البعيد بدت الحرائق تضيء المنطقة المقابلة. لم يكن حريقا واحدا متصلا. بل حرائق صغيرة تومض هنا و هناك ورائحتها تخيم على المنطقة.

توقفت لاهثا أنظر حولي، فتوقفت هي أيضًا. لا أدري لماذا تذكرت نظارة البحر الصغيرة القابعة في حقيبتي التي أعلقها على كتفي، و فكرت في البنت، فسوف تكون مناسبة لها بمجرد أن تكبر قليلا. غير أن عزة مدت يدها وأدارت وجهي ناحيتها. كانت الدموع تلمع في عينها وهي تميل على و تقبلني في فمي ثم قالت:

"تعتب.. أحمل عنك هند؟..".

رفضت بهزة من رأسي، فأخذت ذراعي وواصلنا جرينا.

ساحل روض الفرج – مدينة ٦ أكتوبر

مارس ٢٠٠٢ – أكتوبر ٢٠٠٤

ثمة وقائع محددة اعتمدت فيها – بتصرف – على

كتابي "حضارة مصر الفرعونية" لفرانسوا دوما ترجمة

ماهر جويجاتي، و"نهب آثار وادي النيل " لبريان م.
فاجان ترجمة

د.أحمد زهير أمين.